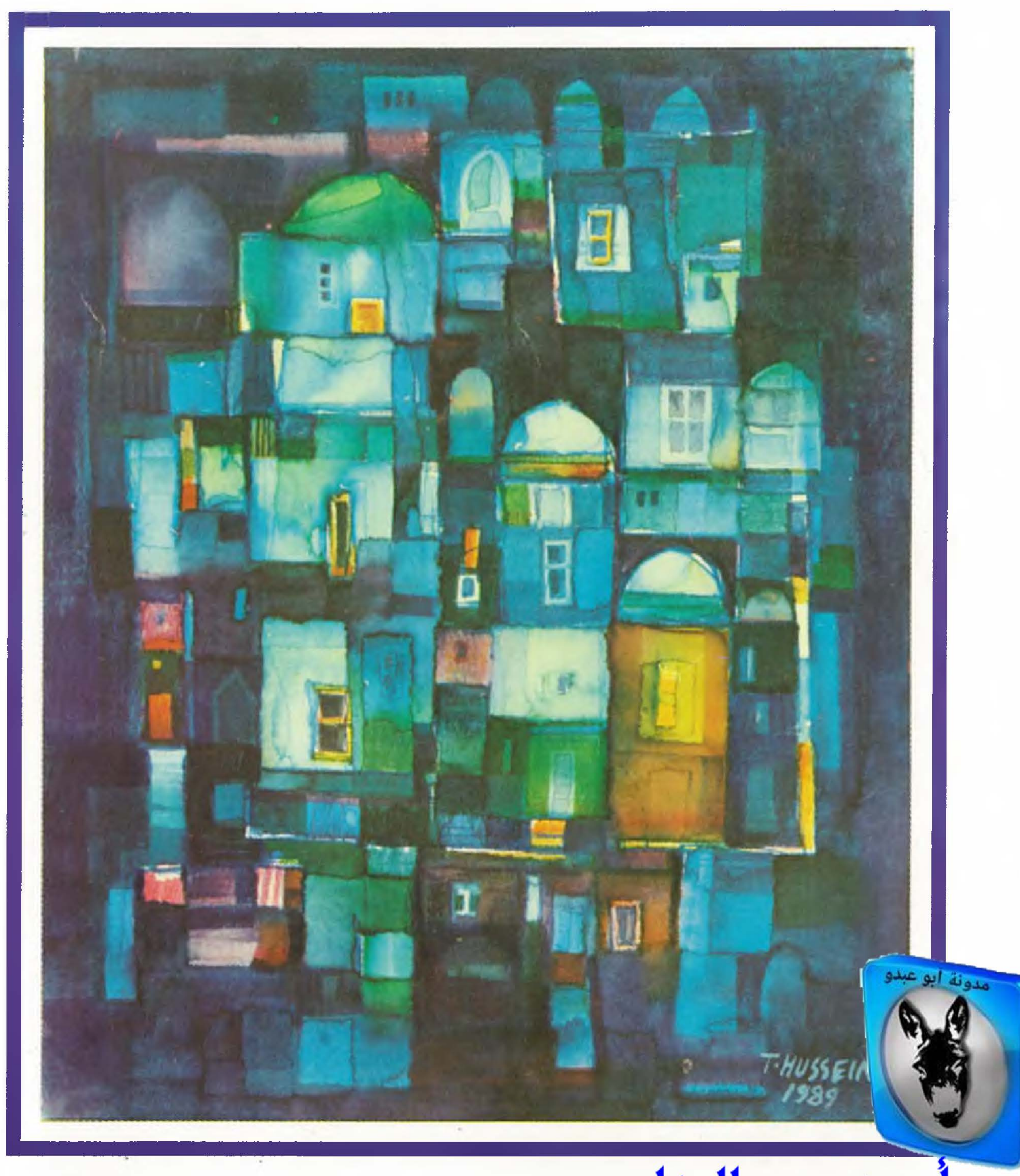
محمّد صباح الحواصلي

# منمنمات على جدران دمشق القديمة



# منمنمات على جدران دمشق القديمة

* منمنمات على جدران دمشق القديمة ـ قصص قصيرة
* محمد صباح الحواصلي
* الطبعة الأولى ١٥٠٠/ ١٢/ ١٩٩٠

* صمم الغلاف محمد ماجد الحواصلي
* لوحة الغلاف للفنان طريف حسيني

محمّد صباح الحواصلي

# منمنمات على جدران دمشق القديمة

قصـص قصـيرة

## الاهــــداء

إلى الأفق البعيد الرحب الذي طالما تقت إليه

وكان من المتعذر عليَّ بلوغه . . .

إلى أبي الدكتور أحمد قدري الحواصلي

الراحل الباقي

صبــاح


- ط -

# الرحيـــــل

أدنـــو من يده وأحتـــويها براحتي . ألثمهـا ثم ألصقهـا بخدي . وفيها يده الهزيلة تداعب شعري تغدقني نفحات رطيبة من زمن الطفولة . كانت يده أصلب ، تجري في عروقها دماء الشبـاب ، وكـان يدفـع بي إلى أعـلى . . وتتلقاني يداه . . ما ألذها تلك الدغدغة التي كانت تنساب من أعماقي وأنا أهوي إلى يديه . كان ذلك زمن دعة واطمئنان . . حين لم يكن الموت يشغلنا .

أنهض وأسلم نظراتي إلى وجهه المتعب . أقول له :

ـ « لن نغيب طويلاً يا أبي . . سنعود وسنمكث بالقرب منك »

ـ « لا داعي يا بني فأنا بخير »

يمـد ذراعيه نحـو ولـدي . . يحمله ويضمـه إلى صدره

المترهل . سألته وقد خالطني مزيج من نشوة وأحاسيس مبهمة :

- « هل سرك أن سميته على اسمك ؟ »

- « أصيل أنت يا ولدي »

ثمينة هذه اللحظات . هي التي تبقى من زمن يتفلت كالحلم .

أتملى النظر في عينيه . أعجب لثرائهما على الرغم من خفوتهما وشحوبهما . . ويروعني أن ألمح في شفافيتهما طيف وداع . لا بد من الشجاعة في مثل هذه المواقف . أحمل حقائبي وأسير . أقف عند باب غرفته . . ألتفت إليه . . زوجي تقبل يده مودعة .

- « بارك الله فيك يا ابنتي »

- « سنعود يا عمي . . وإن شاء الله سنراك عن قريب »

يربت بيده على خد ولدي . . نسير جميعاً .

- «إبق ياأبي في مكانك . . لا ترهق نفسك »

- « أريد أن أودعك »

التفتّ لألوح له من خلف زجاج السيارة . . لم أتمكن لأن شجرة التين التي زرعها بنفسه حجبته عني . احتوي يد زوجي براحتي . . تنظر إلي ويفيض دمعنا .

تستفيق في أعماقي ذكريات بعيدة .

ياه . . ما أعـذب أيام الطفولة . . وتندفع الأشجار إلى الخلف مسرعـة . أمسـد شعر ولدي وهو مستغرق في اكتشاف العـالم من خلف زجـاج السيارة . ذات يوم أمسـك أبي بيدي وركضنا . وقفنا على قمة تلة . ضمني إلى ثراء صدره ، ومد يده مشيراً إلى البعد .

قال لي : « انظر إلى هناك » وجعلت عينـاي الغـافلتان تبحثان عما هناك .

ـ « هناك بيتنا قرب النواعير . . أتراها ؟ » .

ـ « بعيد بيتنا يا أبي . . لقد ابتعدنا كثيراً عن البيت »

ولكم شعرت بحاجتي إليه يومها . . هنا إذن البرية حيث تسرح الضبـاع ليلاً . . ومن هنـا يتنـاهى إلينـا ـ مع حكايات جدتي ـ عواء الذئاب . التحمت بجسده . . أنا أحبك يا أبي ، ولا أستطيع أن أتركك .

عجبـاً كيف يبغتنـا الزمن . . فها هو أول الخريف يحل ويطبـع كل شيء بروحه . أقف خلف زجاج النافذة في المدينة البعيدة وأرقب أوراق الأشجـار الصفـراء وهي تتـدافـع في الـطرقـات وتتجمـع عنـد جذوع الأشجـار . . وهـذه الشجرة

الباسقة في الحديقة لم يبق على أغصانها إلا القليل من أوراقها . . كلها آيلة إلى السقوط .

أمسك بالقلم أكتب : ( والدي الحبيب حفظه الله ) انشغل . أترك القلم وتنثال الأيام ، والأوراق ما تزال على مكتبي . . سأكتب اليوم عند المساء . . سأكتب له أنني سآتي .

ويأتي المساء . . أطلب على الهاتف . . مكالمة من الشام .

وتندفع عبر النافذة أنفاس نسمة تزخم برائحة الخريف . . تترنح أغصان الأشجار . وتسقط آخر ورقة من الشجرة الباسقة في الحديقة .

الرياض ٢٩/١٠/١٩٨٥

# وستكون الأيام جميلة

نبضت في مقلتيها دفقة حنان سخية كالشمس « أوتحسبُ أنه خاف علي ما في عينيك من قلق ؟ » . وضعت فلة في كأس ماء ثم جعلت تمرر أناملها على ظاهر يدي . قلت لها :

ـ « لقد تدهورت صحتي أكثر يا فريال »

رفعت عينيها إلي ولاح في تألقهما ابتسامة رضية :

ـ « بيد أني مطمئنة يا صلاح . . ستبرأ وستكون أيامنا جميلة »

ـ « أتذكرين ؟ »

كانت رائعة حقاً تلك الأمسيات الشتوية حيث الدفء والشعر والكستناء يتفلق فوق الموقد ، ودفترك الذي جمعت فيه أحلى الكلم . . قلت لي اكتب ما تشاء على صفحته الأولى . . أتذكرين ما كتبت ؟

ـ « أنت التي أنا لك وأنت لي وأنا منك وأنت مني وكلانا واحد » .

وفي أمسية شتوية أيضاً ، أحلامها مشرئبة كالنخيل ، طوقني الإختناق .

ـ « لا تقلقي مجرد نوبات ربو خفيفة تنتابني في الشتاء » .

ولكنها الآن ليست خفيفة . . من الصعب أن أصدق أنها لن تبرح أنفاسي أبداً . وكأني أتصارع معها تحت الماء . . انزع حشائش بحرية عالقة على جسدي ، أعرف جيداً أن الربو لا برء منه ، وأعرف أن القدرة على التنفس ـ كما يتنفس خلق الله ـ شيء لن أطاله ما بقي لي من سني العمر . لكن دوماً يحلو لنا أن نغتال الحقيقة :

ـ « سأبرأ . . وستكون الأيام جميلة » .

ما أروع تلك اللحظات التي نصنع فيها أحلام العافية . .

ـ « ما رأيك يا صلاح لو نخرج ونسير قليلاً ؟ »

سرنا على رصيف طويل تمتد على طوله شتلات نخل صغيرة . هادىء كل شيء من حولنا . وهذه النسمات المنعشة

أحـالت ذلـك النهـار الحـار إلى ربيع مفـاجىء . يركض صغيرنا . . يقع . . أعجل خطوي وراءه . يقوم وحده ويتابع ركضـه . أشعـر باجهـاذ في صدري . ربـاه ! مجرد خطوات جعلتني ألهث كالمكـدود . أتحسس بخـاخـة ( الفنتـولـين ) في جيبي . أضخ دفقتين في فمي .

ـ « يجب أن نعود يا فريال . لم أعد أقوى على السير » .

تنادي صغيرنا : « أحمد » .

يهرب من نداء أمه . . تتدافع الضحكات من أعماقه . . يعجل من خطوه ، تتبعه وتمسك به .

رائع ولدي . . والدرب طويل . .

ينتـابني اصرار أنـه لا بد من العـافية . أشعر أن النوبة قادمـة . . فراسـة ألفتهـا وأصبحت بفضلهـا قادراً على معـرفة شراسة النوبة .

ـ « ستكون شديدة هذه المرة يا فريال » .

كثيراً ما تكون البداية عسراً في التنفس ثم تتضرع بعده كل خلية في جسـدي لتنعم ولو بشهيق واحد من الأكسجين . ويجثـو الـداء فوق صدري . . يستحيل إلى زمن تتمطى ثوانيه ببلادة وتمارس ساديتها فوق ضلوعي .

ما كان علينا أن نعود إلى البيت والنوبة آخذة بالاشتداد . كان يتعين علي أن أذهب إلى أقرب مستشفى .

أسند ذراعي إلى الجدار وتجول عيناي عبر النافذة في الدنيا الرحبة الممتدة أمامي حتى الأفق البعيد .

ـ « ألا تستلقي يا صلاح ؟ »

ـ « من الأفضل أن أبقى واقفاً » أشعر وأنا واقف أنني أكثر قدرة على ملء رئتي بالهواء والتحكم بأنفاسي . ثم أني أكره الاستسلام للسرير . هكذا ـ على الأقل ـ أجابه خصمي وجهاً لوجه .

انظر إلى الناس والدنيا . . إلى السماء والأفق الرمادي . . إلى تلك الجبال الباهتة اللون لفرط بعدها ، أما تلك الواحات الخضراء فهي ما يثير ويؤجج توقي للحياة . يجب ألَّا أنفعل كي لا أزيد من هياج صدري. تعلمت ـ كلما هاجمتني نوبة ـ أن أسلم جسدي كله إلى الركون وأصرف طاقتي لعملية جذب الأنفاس وضخها ، ويقيني أنها عملية مضنية . عيناي هما الوحيدتان اللتان تتحركان بنشاط وتجوسان بنهم كل ما يقع في ساحتهما . . أتمسك بكل ما تراه عيناي . . لن ينقطع ما بيني وبين هذا العالم من ود وتوق . أشتاق إلى كل ما يجري

حولي . عجباً كيف لم أرَ الدنيا والناس على مثل هذه الروعة من قبل ! .

يشتد الاختناق . .

ليس أمــامــي إلا أن أضــاعــف جهــدي في جذب أنفـاسي . . رئتـاي أصبحتـا الآن أكثـر انسـداداً . . لا تكاد تدخلهما مسكة من نفس . . كل شيء في داخلي يتلوى كسمكة في شبكة صياد ، حتى تفكيري يتلوى ويجول دون إرادة مني . . يسترق نتفاً من ذكريات ، يغوص عميقاً لالتقاطها . أعجب كيف بلغ تلك القيعان من مجاهل الذاكرة الموغلة في العمق . . كنت صغيراً أركض في بساتين الغوطة المزهرة . . زهر المشمش من حولي ربيع لا ينضب . أنادي اخوتي :

- « هيا بنا نتسابق . . أنا الحصان الأبيض . . »

أشق الهـواء العـابق بأريج الزهر وأغوص في المروج . . كانت الـدنيا آنـذاك فرحـاً خالصاً وكنا على يقين من أن الأيام الآتيات ستكون أبداً جميلة .

- « أكاد أختنق » .

هذا ما قالـتــه عينــاي . ويروعني أن أرى الجــزع في عينيك . تنـظرين إلى أظـافـري بقلق . نعم ، لقـد أضحت

زرقاء . . وهذا يعني خطوة أخرى نحو الخوف الحقيقي . عيناكِ ضارعتـان في اتزان وسكون . أروع ما فيهما ذلك الكم الهائل من البشر والأمل . لا بد من البقاء لأن أيامنا دائماً في انتظارنا . ولن تكون الأيام إلا جميلة .

انقبـاضـة مفاجئة شرسة تنال من قدرتي على التنفس . يثقل رأسي . أتأرجح بين الغياب والوعي .

جســدهــا الــدافىء يعينني على الســير . . أسـير ببطء مضن . . أشعر وكأني أقتلعُ من وجودي . . نخرج . . يلفحني هواء على شيء من البرودة ، وتسكن أنفي رائحة الشارع . كل شيء صامت من حولي .

ـ « تكسي » . . تنادي .

وتنـطلق بنـا سيارة الأجـرة الصفراء عبر شوارع خالية . الليل . . والأضواء . . وهذه النجوم المنثورة على صفحة السماء الحالكة . . أشياء جميلة . .

الحياة جميلة ولا بد من العافية . . من أن ينجلي الاختناق يوماً . . لأن ولدي رائع والدرب طويل . .

وستكــون الأيام جميلة . زوجتي الجميلة ستكــون سعيدة . . والدنيا السعيدة ستعود جميلة .

وتلتهم عجــلات السيارة الـطريق الإسفلتي . . وكــان الليل . . والأضــواء . . وتلك النجــوم المنثـورة على صفحـة السماء . . سكوناً .

الرياض ٢/٧/١٩٨٦

# لمسات اليوم الأخيرة

المساء يتنفس بصعوبة ، والسابلة مشغولة غير مشغولة ترسم على طرقات المدينة خطوات زمن عقيم . شوارع دمشق اكتظاظ غير مجد . . والليل وردة ذابلة تغفو في إناء بحانة قديمة . . سيارات الأجرة الصفراء ثعالب تسعى لاهثة في شعاب الليل .

المساء مصدور ويتعين علي ألّا أنسى أن أشتري دوائي . وها هي المحلات تغلق .

« لا وقت اليوم يا سيدتي فقد أشرفت الساعة على التاسعة » .

استنفذ المساء طاقته وها هو يشرف على الانتهاء . يوم رتيب بلا ظلال . . ممتد بلا انتهاء .

اشتريت جرائدي ، وعندما شعرت بجوع اشتريت بضع

فطائـر بالجبنـة . كانت مالحـة بيد أنني أكلتها بشهيّة فيما كنت أسـير مشغـولاً عن السـابلة الراحلة أبداً داخل حلقة مفرغة . مشغولاً بالشعر حيناً وبالمدينة الممكنة حيناً آخر .

آه يا بلدي . . متى تصـيرين كما أريد ؟ شعـراً وفـرحـاً وهواءً نظيفاً وعشباً ينضح نضارة .

مشغول أنا بأحزان قاسيون وناس قاسيون . هموم مدينتي غصة في حلقي تكتم أنفاسي .

رويدك . . حسبك ما فيك من سقم .

والناس وأحزانها ؟ ومدينتي وهمومها ؟

لقـد نسيت الدواء . كيف أنسى أن أشتري دوائي وقد نزلت السوق من أجله ؟

أسـير في ليل الهمـوم والمصابيح الباهته . في المنعطفات أصبـح الليل صمتـاً مريبـاً . أكـره هذه العيون التي تتقفـاني باشتباه . أتراني أكسر من حدتها القاتلة لو صرخت فيها : « أنا أحب بلدي . . أحبها كما أحب أمي وزوجي وولدي . أحبها كما أحب الشعر والطفولة والسماء » .

سرت كثـيراً أبحث عن صيدلية مناوبة ، ودقت أنفاسي وقع الخطر . نعم . . أدري ما سيأتي . عثرت على صيدلية عند

نهاية طريق مترب .

- « من فضلك أريد حبوب ( ديماكورت ) »

- « لا يوجد »

- « لكنها من صنع الوطن ! »

- « قلت لك لا يوجد . . ولا تسأل كثيراً »

- « لكنني بحاجة ماسة إليها الآن قبل الغد »

- « لا تكن لجوجاً . قلت لك لا يوجد »

لجوج ؟!

لو يدري كم أصبحت مولعاً بالصمت . حتى بركاني خمد ، وحقول الرؤى والأحلام في داخلي قضمها القهر . وتدق ساحة خربة في ساحة المدينة أثنتي عشر دقة يدوي صداها في جوفي ، ويضع اليوم لمساته الأخيرة على صدري .

وينتهي النهار . . أبداً بلا انتهاء .

رتيباً بلا ظلال .

اختناق

دمشق ١٢/٩/١٩٨٨

# هارب من الدورية

كانت السيارة السوداء الفخمة مسترخية باطمئنان على الرصيف . رأيته مختبئاً خلفها . . طفلاً ملتحماً بصباراته القليلة التي جمعها أكواماً فوق شحارة .

ورأيت أيضاً فيما رأيت ، خوفاً يعصف في مقلتيه ، ورأيت طفولة غائمة بلا سماء . . بلا عصافير .

نظرت في عينيه ـ ما أدهش أديمهما ـ جلت في بريقهما الحزين أبحث عن طفولته . كل شيء غائب في عينيه إلاّ الخوف .

كان الطفل ينظر إليّ بريبة . أتراه خائفاً مني ؟ أم حسبني صاحب هذه السيارة الفارهة ؟ أم رأى في عيني حوتاً يبتلع الأسماك الصغيرة ؟

لا يا صغيري أنا لست منهم . أنا مثلك طفل في أعماقه بحيرة تسبح فيها الأسماك الصغيرة بأمان . . وفيها سماء تحب

العصافير . . تحب الفراشات .

سألته بحدب :

ـ « أنّى لك أيها الصغير أن تبيع صباراتك وأنت محجوب خلف هذه السيارة ؟ الناس لن تراك » .

ـ « أنا هارب من الدورية » .

ثمّ أشار إلى الشارع وقال :

ـ « كانت تعبر الشارع منذ قليل . . إنها تبحث عنا ولا تريدنا أن نبيع » .

ـ « ولماذا لا تريدكم أن تبيعوا ؟! »

ـ « يقولون إننا نشوه جمال المدينة » .

ثم صمت الطفل . . ووجدت يدي تمتد بحنو إلى رأسه تمسح شعره الجميل المبتل بعرق الخوف والهجيرة . ولشد ما أبهجني أن رأيت غمامة الخوف تتبدد في عينيه .

عندها قلت له :

ـ « ما ثمن هذه الصبارات كلها أيها الصغير ؟ »

وثبت الطفولة الغائبة من خلف الغمامة . . عششت في أهدابه فرحاً وضياء . . صارت عصافير ، صارت سماء . قال :

ـ « عشرون ليرة يا عمّو . . »

دفعت له ثمنها . حمل سحارته وطار . وكم لذني أن أراه كوناً من فرح على الرغم من أنني دفعت له كل ما في جيبي من مال .

دمشق ١٢/٩/١٩٨٨

# النـــــداء

كنت أعبر المقبرة عندما سمعت نداءً جافاً أبح :

ـ « أنت يا بني »

تلفــت حولي واســتقــرت عينــاي على ضريح تهشمت شاهدته وتفتت صلصاله ، وبينا كنت أتفرس به قال لي :

ـ « هل لك أن تقترب مني ؟ »

تقدمت من القبر وسألته بنبرة لا تخلو من رهبة :

ـ « أتريد مني شيئاً ؟ »

ـ « طبعاً يا بني »

اطرق القبر حزيناً وراعني أن حفرته مكشوفة ، وتحيط به الأشواك وكان واضحاً أنه قبر مهجور منذ أمد بعيد ، تطامنت برأسي قليلاً لأرى جوفه فقال لي بصوت فانٍ :

ـ « إلام تنظر يا ولدي . . لم يبق مني إلا عظام تعيث بها

الكلاب والأفاعي » ثم تنهد القبر بحسرة وقال :

- « هل لك أن تسدي لي معروفاً ؟ »

- « لك ما تريد »

- « اغلق قبري فلطالما عزّ عليّ أن تعبث الكلاب والأفاعي برفاتي ، وأصلح من أمر شاهدتي ، وأبحث عن أولادي . قل لهم زوروا أباكم ولو مرة في السنة ، وضعوا غصناً أخضر على شاهدته عله يبل أوار غربته » .

وعلى التو أغلقت القبر واقتلعت الأشواك من حوله . وكم كنت سعيداً وأنا أقوم بهذه المهمة .

وفيما كنت أصلح من أمر شاهدته ذهلت عندما قرأت اسمي عليها !!

وألفيتني أنادي بقوة شاباً يبتعد عن قبري :

- « لا تنس أن تبحث عن أولادي . قل لهم زوروا أباكم ولو مرة في السنة »

وعدت إلى رقادي الأبدي .

الرياض ١٩٨٧/٢/٢٤

# منمنمات على جدران دمشق القديمة

## الفراشــة والداليــة

حطت فراشة متعبة على دالية عنب بلدي في بيت عربي قديم .

قالت الدالية للفراشة :

ـ « لماذا تركت البساتين الخضراء في الغوطة وأتيت إلى هنا ؟ ! »

أجابت الفراشة :

ـ « رأيتهم يقطعون الأشجار ، ويلوون عنق كل غصن أخضر ، ويلقون الحجارة الصماء فوق التراب الرطب ويمهدون فوقه طرقاً أسفلتية سوداء فخفت وأتيت إلى هنا » .

فقالت لها الدالية :

ـ « أمجنــونــة أنت حتى تأتي إلى هنـا !! إنهم يهدمـون

الحي . المعاول تعمل ليل نهار . . الجرافات تلتهم أصص الزهور والجدران المزركشة والبحرات العامرة بالمياه ، وسوف تلتهمك أنت أيضاً »

خافت الفراشة فطارت . ولكن سرعان ما حطت ثانية على الدالية وبكت . هبت ريح تحمل معها غبار الهدم . أدركت الفراشة أنها لا بد هالكة . غطتها الدالية بورقة من أوراقها الخضر وقالت لها :

ـ « لا عليك أيتها الفراشة القادمة . بامكانك أن تهاجري إلى حي آخر . . إلى مدينة أخرى »

نشرت الطمأنينة سكونها في أعطاف الفراشة وطارت فرحة . بيد أنها سرعان ما عادت إلى الدالية وسألتها بحزن :

ـ « وأنت أيتها الصديقة الحنونة ماذا ستفعلين ؟ »

أجابت الدالية :

ـ « أنا جذوري هنا . . مغروسة في تربة هذه الدار ومن الصعب اقتلاعها » .

*

## الياســمينة والجــدار

قال جدار في حارة قديمة لجدار مقابل له :

- « لم أعد أقوى على البقاء »

فقال الجدار الآخر :

- « وأنــا أيضــاً لم أعـد أطيق الاهمـال . لقـد تشققت وتساقطت جوانبي وقرفت حياتي »

ولما سمعت عريشة الياسمين المتدلية على الجدار بأوراقها الخضر وأزهارها البيض كلام الجدار تألمت وقالت له معاتبة :

- « أتقــول قرفت حياتــك وأنــا أحنـو عليك وأغـطي شقوقك ، وأعانقك كلما هبت نسمة حلوة »

فقال لها الجدار معتذراً وقد بلت كلمات الياسمينة عروقه الجافة :

- « أنا آسف يا عزيزي . حقاً لولاك لكان وجودي لا يطاق »

وفي أرض الديار ، تحت عريشة الياسمين ، قال صاحب البيت لزوجه يزف لها بشرى عظيمة :

- « سيكون استلام بيتنا الجديد في غضون أيام »

زغردت المرأة من شدة فرحها وتابع زوجها كلامه :

- « كلمت الدلال بخصوص بيتنا هذا . قال إنه من الصعب أن نجد راغباً يسكن بيتاً عربياً في حي قديم »

فسألت المرأة زوجها :

- « وماذا ستفعل به »

- « سنتركه خالياً إلى أن يأتي زبون راغب فيه »

- « وكم سيبقى خالياً ؟ »

- « الله أعلم . . ربما سنة . . أو سنتان . . أو ربما إلى الأبد »

طأطأت الياسمينة رأسها وبكت أزهارها بصمت . ربت الجدار على كتفها وقال لها :

- « لا تحزني يا ابنتي . . لن ينسانا الله »

ومسح الجدار دموع الياسمينة الساخنة براحته الجافة . . ونام النهار .

## الرضيـــع

بكى الرضيع طويلاً . هزته أمه فلم يكف عن البكاء . ربتت على كتفــه ولكن دون جدوى . أضجعتــه على ظهــره ونظرت إلى عينيه اللتين من لون البحار وقالت له :

ـ « ما يبكيك يا حبيب قلبي ؟ »

أجابتها عيناه :

ـ « أنت لا تحبينني يا أمي . . وأنـا لست حبيبك . . لو كنت حبيبك حقاً لأرضعتني من ثديك وليس من هذه الرضاعة الكريهة »

فقالت أمه :

ـ « لكنني فطمتك منذ شهر »

ـ « وأنا لا أحب هذا الحليب الجاف »

نظر الـرضيع إلى ثدي أمـه . استعاد أجمل ذكرياته وهو يتلقفـه مغمض العينـين بكـل ما في الـدنيا من هناء واطمئنان وأديم وجهـه الغض مثـل أوراق زهـر التفـاح مختبىء في دفـء الثدي . في تلك الأيام كان وجهه يلعب في حقول خضراء كلها نشوة ، ويطير مع العصافير ويركض خلف الفراشات . هناك لم

تكن إلا البهجة والعافية . . لم تكن ثمة بداية ونهاية .

أشـاح الـرضيع بوجهه عن أمه وسقطت دمعة حارة من عينـه . إلا أن أمه لم ترها لأن رضيعها كان يبكي بحرقة وهي تغني له :

( نم يا حبيبي نم . . لاذبح لك طير الحمام . . روح يا حمام لا تصدق عمبكذب على ابني حتى ينام ) .

## البـاب الشـــرقي

كان الـرجل يسير متعباً في طريق مغمور بشمس ملتهبة ويحمل بيده بطيخة . وفيما كان يعبر الباب الشرقي لمدينة دمشق القديمة ربت الباب على كتفه . التفت الرجل إليه وقال :

ـ « نعم . . ماذا تريد ؟ »

فقال له الباب الشرقي :

ـ « هل تعرف من أنا يا بني ؟ »

ابتسم الـرجـل لطرافـة الموقف ، وأخذ نفساً عميقاً من لفافته وقال :

ـ « كل ما أعرفه عنك أنك باب من حجر تعبره باصات ودواب المـــدينـــة ، ويلصقـــون على جدرانـــك الاعـــلانـــات

( ونعوات ) الموتى ، ويبول سكارى آخر الليل على جدرانك »

قال الباب في سره متألماً : « اخس . . أخزاك الله »

ثم قال للرجل :

ـ « أهذا كل ما تعرفه عني يا بني ؟ »

ـ « هذا كل ما أعرفه »

وجعل الباب الشرقي يبسط الأمر للرجل :

ـ « أنا باب قديم . . قديم جداً »

هز الرجل رأسه مؤكداً عدم معرفته . فقال الباب :

ـ « كان لي باب خشبي هائـــل ذو مصرعـين لم تستـطع اقتحامه جحافل الجيوش »

ـ « آسف . . ذكرني أكثر »

ـ « أغلقوني في وجه جيش عظيم »

ـ « ذكرني أكثر »

ـ « اقتحمني فاتـح أسمر خالد الذكر لم ير التاريخ مثل شجاعته واقدامه »

ـ « ذكرني أكثر »

ـ « اسمه سيف الله المسلول »

ولكن سرعان ما نفذ صبر الرجل وقال للباب الشرقي :

ـ « أهي أحجية ؟! لا أريد أن أضيع وقتي معك »

وتابع الرجل سيره متعباً في الطريق المغمور بشمس ملتهبة . أما الباب الشرقي فقد زأر زأرة كادت أن تقوض المدينة القديمة فيما كانت المارة تسير بسلام تحت وهج الظهيرة .

## البنت والطريق

كانت البنت تنظر بشرود إلى طريق الحارة من خلال خصاص النافذة الخشبي كعادتها عصر كل يوم .

قال لها الطريق :

ـ « أوتنتظرين أحداً يا صبية ؟ »

أجابت البنت :

ـ « ليس لي أحد أنتظره أيها الطريق »

فقال لها :

ـ « لكنني أنتظرك أيتها الصبية الجميلة ، ولا أريد شبابك أن يضيع هدراً وراء الخصاص »

فقالت الصبية وهي تكتم رغبة جامحة :

ـ « كم أتمنى أن أجوبك أيها الطريق . . أن أجوب الطرقات كلها . . أن أرى الناس والدنيا »

فقال لها الطريق :

ـ « الأمر في غاية السهولة . . ما عليك إلا أن تخرجي وسوف نسير معاً . . سأعرفك على جميع أصدقائي الطرقات والحواري ، وسترين الناس وتنطلقين كحمامة في سماء لا قيود فيها .

ارتدَّتْ البنت إلى الوراء بذعر وقالت للطريق مستنكرة :

ـ « أخرج معك ؟! كيف تجرؤ على هذا الكلام ؟! ألا تعلم ما سيكون مصيري لو رآني أبي أو أخي أسير معك ؟ سيذبحانني مثل النعجة »

ضحك الطريق وقال لها :

ـ « أيتها الساذجة أوتحسبين أنني غافل عن هذا ؟ ستكونين محجوبة عن الناس ولن يراك أحد . . سنسير معاً ، وستركضين وستغنين كما تشائين . . ستكونين وحدك بين جموع الناس ترينهم ولا يرونك »

ذهلت الصبية من كلام الطريق ، واعتمر قلبها فرح لا حدود له . أحست أن كل شيء فيها يتوثب للطيران فصرخت بسعادة مجنونة :

ـ « هيا بنا إذن أيها الطريق »

ـ « هيا بنا أيتها الصبية الجميلة »

دفعت الباب حاسرة الرأس وركضت مثل ظبية جذلى في براري وحشية . . غنت بانتشاء وخصلات شعرها الأسود تسبح بين أمواج الهواء الدافيء ، في حين كانت الطرقات صامتة كالموت ، والسابلة أذهلتها الدهشة .

قال رجل كان يعبر طريقه لآخر يسير معه :

« انظر !! أليست هذه ابنة أبي مصطفى ، اللبان ! أتراها جنت ؟! »

ضرب الآخر كفاً بكف وقال باستنكار ممزوج بحسرة :

ـ « إنها هي !! لا حول ولا قوة إلا بالله » .

## أمية

فيما كانت الصبية تهبط سلم البيت إلى أرض الديار نادتها الياسمينة المتدلية على باب ( الليوان ) برقة :

ـ « أمية . . أمية . . »

التفتت أمية إلى الياسمينة :

ـ « هيه يا ياسمينة ماذا تريدين ؟ »

قالت لها الياسمينة مبتسمة :

ـ « هزي جذعي قليلاً فتعرفي ما أريد »

تقـدمت أمية منهـا وهـزت جذعهـا فتساقطت فوق أمية زهـــور الياسمـين ثلجـاً ربيعياً . انتشت الياسمينـة وهي ترى زهورها تهطل غيثاً من الفرح .

لملمت أمية الزهور البيض ووضعتها في طاسة مكاوية من نحاس وأطرقت تناجي حنيناً تضوع من ذاكرة الياسمين .

ابتسمت الياسمينة وسألت أمية :

ـ « بماذا تفكرين ؟ »

احمـر وجـه أمية خجـلاً ولاذت بالصمت . . فقالت لها الياسمينة من أعماق قلبها :

ـ « الله يبعث لك الذي ببالك » .

## وهــل يحكــي القمــر

قال القمر لرجل وحيد يسير في الطرقات الباردة :

ـ « لم يعد غيرك في الطريق ، ألا تريد أن تأوي إلى بيتك ؟ »

نظر الرجل الوحيد إلى القمر بعينين متعبتين وأجابه :

ـ « أين هو بيتي حتى آوي إليه ؟ أنا منذ أن دب الدم في عروقي شريد الطرقات »

تابـع الـرجل سيره وقد بدأ عليه الاعياء . وعندما وجد مكـانـاً يحمي فيه بدنه من لسعات البرد تمدد وقبل أن يغمض عينيه المجهدتين باغته صراخ الحارس :

ـ « ماذا تفعل هنا ؟ »

ارتعد الرجل وانتصب واقفاً وأجابه بنظرة كسيرة :

ـ « أريد أن أنام يا سيدي . . لم أنم منذ أيام »

قال الحارس للرجل :

ـ « أنت لص »

ـ « أقسم لك يا سيدي أنني شريف »

هنا تدخل القمر وقال للحارس :

ـ « أنـا أشهد أنه بريء أيها الحارس . . لقد كان معي وهو رجل متعب لا مأوى له . . فدعه ينم ولك ثواب من الله »

رفع الحارس رأسه إلى القمر باستغراب وقال له :

ـ « ما الذي حشرك أنت ؟! أنا أعرف هذا الصنف من الناس . إنه لص ويجب سوقه إلى المخفر »

فقال القمر متوسلاً :

ـ « أرجوك دعه . . إنه بريء ومتعب »

قال الحارس بحنق :

ـ « إذن أنتما الاثنان لصان »

ذهل القمر من كلام الحارس وقال له مستنكراً :

ـ « أنـا لص أيها الحارس ؟! أنا القمر الذي أضيء ليل الخلق تقول عني لص ! »

ساق الحارس الرجل الوحيد المتعب من كتفه إلى المخفر وقال للقمر بقرف :

ـ « اغرب عن وجهي »

تألم القمر ألماً شديداً وغاب عن وجه البسيطة وعندما طلع ضوء الصبـاح كان الـرجل المتعب ما يزال يستجوب في المخفر ويقول بما تبقى فيه من أنفاس :

ـ « أنا بريء . . اسألوا القمر » ، فيما كان المحقق يكيل له الصفعات ويقول له ساخراً :

ـ « يا أحمق . . وهل يحكي القمر ؟ »

*

# أنا وإياك على الدهر

في ليلة مقمرة ، في غرفة عالية تطاولها ذؤابات أشجار الكباد والليمون ، جلست العروس على طرف السرير خفيضة الرأس بخمارها الأبيض . .

دنت من العروس أنفاس فحلة ، ثمّ قبضت على يدها راحة خشنة حارة . . انتفضت رعشة فرح في أعطافها تشبه الألم ، وامتدت اليد إلى الخمار .

سمراء يده . . رأتها العروس أول ما رأت ، وأطبقت جفنيها على حلم مبهم واشتعلت وجنتاها بحمرة الخفر . أطل عصفور من خلف زجاج النافذة . . زقزق ثمّ طار ، وعاد مع عصافير . . زقزقت وتخابثت . . تناهى إليها من بعيد بقايا زغاريد . . ففزعت العصافير وطارت .

أمسك ذقنها بأطراف أصابعه . ورفع رأسها إليه . الآن ستراه وسيراها لأول مرة .

رأت العروس وجهه . . وجه فارس أسمر ، له شاربان ثخينان ، وعينان حادتان ، وملامح قاسية ، وفرحت كثيراً لأنه كان يبتسم .

ورأى العريس وجهها . . حلماً بلون الياسمين . وتضوع في فؤاده طيف أنوثة يعبق بطيب المدن القديمة وعنبرها .

قال لها :

ـ « قولي . . أنا وإياك على الدهر »

قالت بعذوبة وأجفانها مسبلة :

ـ « أنا وإياك على الدهر »

وطوى الزمن أول ليلة من ليالي ألف ليلة وليلة .

## ماويـــة والعصفـــور

خرجـت ماوية من الـبـيت لتـلعـب في الحـــارة . رأت عصفوراً فقالت له :

ـ « أريد أن أطير مثلك »

فقال لها العصفور :

ـ « إن طرت مثلي تضلي طريقك ويصبح من الصعب أن تعودي إلى البيت »

فقالت له ماوية :

ـ « ولِمَ لمْ تضل أنت بيتك ؟ »

ضحك العصفور وقال لها :

- « أنـا ليس لي بيت كي أضله . أنا حُرُّ طليق . . كل الأشجار والأسطح بيوتي »

اشتـدت رغبة ماوية بأن تصبح عصفورة وتطير ، وقالت للعصفور متوسلة :

- « أرجوك أيها العصفور ساعدني على أن أصبح عصفورة وأطير »

أجابها العصفور :

- « إذن ما عليك إلا أن تحركي يديك مثلي »

حركت ماوية يديهـا فصـارتـا جنـاحـين ، وحلقت مع العصفور في سماء الأزقة وحطا فوق الأشجار ونقرا حبات العنب من دوالي الأسـطح ، وزقـزقا مع العصافير وفرحت ماوية لأنها أصبحت عصفورة وصارت تطير .

ولكن فجـأة دوت طلقة من بندقية صدعت هدأة الفرح وأصـابت العصفـور . صرخت ماوية عندما رأته يسقط ميتاً . ركضت بين الأزقة باكية تبحث عن بيتها ومن يومها لم تعد ماوية تفكر بأن تصبح عصفورة وتطير .

*

## فــزع الياســمين

ذات صبـاح ، فيما كنت خارجـاً إلى المـدرسـة ، رأيت الياسمـين مسـتريحـاً بسـلام تحت العريشة على أرض الديار . أحسست وكأن روحي قد ردت من عبيره النفاذ .

دنـوت منـه وجعلت أجمـع زهـوره براحتي الصغيرتين . ولأنني كنت أكتشف ، للمـرة الأولى ، غبطة في الياسمين فقد نسلت من الزمن ، ولم يعد يشغلني إلّا أن أجمع زهوره البيضاء وأضمها في طوق أهديه لمعلمي .

وأفاجأ بصوت أمي يأتيني من نهاية السلم :

ـ « أما تزال هنا ؟! لقد تأخرت عن المدرسة »

ينتفض الياسمين من راحتي فزعاً ، وأهرع إلى المدرسة . كنت أسمع لهاثي وأنا أسرع الخطا . لم يكن يشغلني حينها إلّا عصا معلمي التي ستنهال على راحتي فور وصولي إلى المدرسة .

## بكـــره العيــد

بكـره العيد . . أثبتـوهـا . . ضربت المـدافـع ، وغنت الطرقات . الليلة عيد على الدنيا سعيد .

صاح الفرح في الأولاد . .

صاخبــة أصبحت حركــة الحــواري والأزقــة . صواني الحلوى حملت إلى الأفــران . . وازدانت المـدينـة وسهــر الليل والقمر مع باعة الآس على الأرصفة قرب المقابر .

استيقظ الفجر مع فرح الأولاد . . اليوم عيد . .

ـ « كل سنة وأنتم سالمون يا أولاد » قالت أم .

ـ « وأنت سالمة يا ماما »

وجعلت الأم ترقب البهجة كيف تمرح في مُحيا أولادها . كيف تلبي نداء الحنين إلى النشوة . والعصافير تغرد بسخاء في بطون أشجار النارنج .

ألبست الأم أولادهـا ثيابهم الجديدة ، والتكبيرات تنبثق من أعـطاف الأحياء والأزقـة . الله أكبر . . الله أكبر كبيراً . . والحمد لله كثيراً . .

انطلق الأولاد إلى الفرح مهوراً تسرح في الفلاة .

ارتدت الأم ملاءتها وسارت عبر الزقاق القديم بخطوات منكسرة ، اشترت رزمة آس واتجهت صوب المقبرة .

*

# أبــو فــارس

كان أبـو فارس ينظر إلى صورته المعلقة على جدار غرفة نومه ، ويتذكر أيام الفتوة والزكرتية . كان حينها في عزّ شبابه ، كلمتـه لها وقـع الصخـر عنـدما يحط من أعالي الجبال ، وكان شارباه زينة شوارب الحي .

أسنـد أبـو فارس رأسه إلى كرسي وأغمض عينين هدتهما الشيخوخة . أخذ نفساً عميقاً وتناهى إليه صوته آتياً من صلب الشباب مثل هزيم الرعد :

« ها قد مضت السنـون يا أبـا فارس ، راح العـز ، وراحت الصحة والهيبة ، والآن ماذا بقي منك ؟ أنت لا تكاد تستـطيع أن تحرك قدميك وتسـير ، وإن استلقيت على كرسي وأغمضت عينيك لتغفو قليلاً فربما لا تقوم ثانية وتغفو إلى الأبد » .

ودوت في بيته صرخة امرأة ملتاعة :

- « أبو فارس ! »

وتقادم الزمن على الصورة فشاخت هي الأخرى وأصبح لها إطار أسود .

❋

# بـــدرية

كانت بدرية جالسة على كرسي من القش أمام الراديو المثبت في كوة داخل الجدار تستمع إلى أغنية : ( طول عمري عايش لوحدي ) ، وكان الحطب يستعر في المدفأة الواطئة ، والمطر ينهمر بعنف ويضرب زجاج النافذة المطلة على أرض الديار . مسحت بدرية دمعات حارة انثالت على خديها اللذين لم يعودا رائقين كعهدهما أيام الصبا . قامت وأعدت لنفسها فنجاناً من القهوة وعادت إلى كرسيها .

أسندت رأسها وراحت تنصت إلى ضربات المطر على الزجاج . كانت بدرية تفكر . تفكر كيف أن الزمن لم يبق منها إلّا حطام أنثى مدفونة في الصمت والوحدة . . أنثى يسمونها بدرية العانس .

بكت بدرية . كانت دموعها تنثال على أديم وجهها بغزارة ، وكان المطر ينهمر بعنف . ناداها المطر :

- « بدرية . . إرحمي نفسك . . »

لكن بدرية كانت قد استسلمت لنوم عميق ، وتعب المطر فنام هو الآخر .

حلم المطر أن وجه بدرية بستان خصب فيه كل الثمار .

وحلمت بدرية أن المطر يغسل أحزان وجهها ، وأن فارساً يمتطي صهوة جواد أبيض ينقر على الزجاج .

انتفضت بدرية من نومها . التفتت بشوق إلى النافذة . كان الفجر يتسلل من خلف الأفق البعيد ، ورائحة المطر تعبث بالهواء البارد .

ألصقت وجهها بالزجاج وجعلت ترقب قدوم الصباح .

## اليمامة

كان الطفل ينظر إلى حافة السطح ويبكي بمرارة . تناديه أمه من أرض الديار :

ـ « اصطبر قليلاً يا حبيبي . . سأنتهي بعد قليل وأصعد إليك »

وتتابع الأم شطف الأرض . لم يكف الطفل عن البكاء بل استمر أكثر حدة وهو ينظر إلى حافة السطح . وعندما استحال بكاؤه إلى استغاثة صرخت أمه حانقة :

ـ « قلت لك اصطبر قليلاً وسأصعد إليك »

وتابعت الأم شطف الأرض . ثمّ أخذت تسقي أصص الورد ، وترش أسياخ الزنبق البلدي المحاطة بالبحرة وعينا

طفلها لم تبرحا حافة السطح وهو يبكي بحرقة .

وعنـدما أدرك الطفل أن أمه لن تستجيب لبكائه ، حمل رضاعة الحليب الزجاجية وألقى بها إلى أرض الديار فانكسرت وتنـاثرت أجزاؤها . عندها انتفضت أمه غاضبة وصعدت إليه مسرعة وهي تتوعد بحنق . أمسكت بولدها وجعلت تضربه فيما هو يشير إلى حافة السطح ويبكي . ثمّ أخذته إلى سريره وألزمته أن ينام .

عادت الأم إلى أرض الـديار لتـزيل نثار الزجاج . وفيما هي تكنس سقط قربها بقايا يمامة . .شهقت الأم جزعاً ورفعت رأسها صارخة :

ـ « العش »

في تلك الأثنــاء قفـزت قطة من حافـة السـطح ولاذت بالفرار . وكان الطفل قد جف بكاؤه في مقلتيه واستسلم لنوم عميق .

## الدنيـا بخيــر

رفع الشيخ رسلان رأسه من قبره وأطل على مدينته دمشق فرأى عجبـاً . فالمـدينـة أصبحت عجـولـة مزدحمـة ، وهواؤها

ملوث ، وأشجـارها اقتلعت وأنشىء فوق أرضها الطيبة الأبنية الاسمنتية ، ودخان السيارات قد شكل هالة رمادية فوق المدينة .

ظن الشيخ رسلان أنه قد أخطأ مدينته فسأل رجلاً يسير مسرعاً :

- « يا بني . . هل لي أن أسألك سؤالاً ؟ »

قال الرجل :

- « تفضل . . ولكن بسرعة فأنا على عجل من أمري »

- « هل هذه مدينة دمشق ؟ »

نظر إليه الرجل مستغرباً وقال :

- « طبعـاً هي . ألا ترى القلعـة على يمينـك والجـامع الأموي على شمالك »

قال الشيخ للرجل :

- « هذا صحيح جزاك الله خيراً . ولكن قل لي ماذا دهى المـدينـة الطيبة ؟ لقد أصبحت مُقبضة للنفس » .

هزَّ الرجل رأسه أسفا وقال للشيخ :

- « أنت لم تر شيئاً بعد . . عُدْ إلى قبرك وارتح فوالله لقد قرفنا حياتنا »

تألم الشيخ رسلان لما آلت إليه مدينته الجميلة الطيبة وود ألا يفيق من رقدته ثانية . وفيما كان الشيخ على وشك أن يرقد في قبره رأى عجوزاً يركب حماراً في زقاق قديم وقد أصابه الاعياء فسقط من على حماره مغمياً عليه . هرعت النـاس إلى العجوز وقـد اختلج في صدرها احساس مبهم عبق بطيب هذه المدينة القديمة . فراح أحدهم يرش الماء على وجه العجوز ، وهمّ آخر بحمله إلى المستشفى ، وأمسك ثالث بحماره كيلا يسرح .

حينها ابتسم الشيخ رسلان راضياً وقال في سره :

- « الحمد لله ما تزال الدنيا بخير » .

## بعـد فـوات الأوان

كان الشـاب يهم بالـرحيل عن مدينتـه عنـدما استوقفته شجرة الزيتون وقالت له :

- « إلى أين أنت راحل يا بني ؟ »

قال الرجل بنفاذ صبر :

- « إنني مهاجر . . فلم أعد أطيق البقاء في مدينتي »

تألمت شجرة الزيتون من كلامه وقالت :

- « ولكنك ستكون غريباً أينما حللت »

ـ « أن أكون غريباً في بلاد غريبة أهون عندي من العيش في وطن لم أعد أطيقه »

هنا أطرقت شجرة الزيتون قليلاً ثمّ قالت :

ـ « يا بني . . هل لك أن تسمع حكايتي قبل أن ترحل ؟ »

هز الشاب رأسه على مضض وجلس على حقيبته مصغياً إلى الشجرة .

ـ « منذ زمن بعيد بذرت في هذه الأرض ومن ذلك الحين إلى يومنا هذا مرت علينا ـ أنا واخواتي الأشجار ـ أيام عصيبة تضني الرجال . فقد قاومنا غزوات الغزاة وحاربنا مع المجاهدين وتحملنا مشقة الجفاف والعطش ، وكاد الجراد يبيدنا ، بيد أننا على الرغم من ذلك كله ، بقينا صامدات . أتدري لماذا يا بني ، لأن الأشجار جذورها عميقة في أوطانها » .

قال الشاب للشجرة باستخفاف :

ـ « هل انتهيت من حكايتك ؟ »

أطرقت الزيتونة بإنكسار وقالت :

ـ « نعم لقد انتهيت »

همّ الشاب بالرحيل . رفعت الزيتونة رأسها ونادته :

ـ « يابني » .

التفت الشاب إليها .

فقالت شجرة الزيتون :

ـ « إذا عُدت يا بني تذكرني »

ورحل الشاب . وانطفأت نجمة أخرى في سماء الوطن .

مضت السنون ، وإذا الشاب عائد إلى وطنه . عائد ليبقى ، ليعانق شجرة الزيتون الطيبة ، ليقول لها لم أنسك في غربتي ، وها قد عدت لأتعلم منك الصمود .

ولكن عندما بلغ الشاب مشارف المدينة لم يجد أثراً لشجرة الزيتون ولا لأخواتها الأشجار . بل رأى على مد البصر طريقاً أسفلتياً يلتمع ببريق الشمس الوهاجة .

الرياض ١٩٨٥ / ١٩٨٦

# مــرشـــدة

يسري في عروقي سحـــر أخـاذ لا أعـرف له تفســيراً ، وتشيع في نفسي غبـطة غامضة كلما رأيتها أو سمعت باسمها ، ويعصف بقلبي الصغير شوق مبهم إذا غابت عن المدرسة يوماً .

مرشــدة على مثل سني ، في الثامنة من عمرها ، سمراء دقيقة الملامح ، ذات عينين سوداوين تظللهما أهداب وطفاء ، وشعرها الأملس الطويل كأنه قطعة من الليل يجثو مطمئناً مزهواً على ظهرها الرصين .

ولأن مرشدة ، مثلي ، شديدة الخجل ، قليلة الكلام ، فاني لم أحظ بقـربهـا أو محادثتها . وهي لا تلعب في الباحة مع زميلاتهـا وزمـلائها بل تنتحي ركنها المختار قرب باب صفنا لا

تستبدله لوفرة ظله ولبعده عن هياج التلاميذ ولعبهم ، وتحرص ألا تسند ظهرها على الحائط كي لا تتسخ ( صدريتها ) بآثار الطباشير .

ألعب مع زملائي وأحاول جهدي ألا أبدو خشناً فظاً في لعبي بل أظهر ما يمكنني من اللطف والظرف علني بذلك أترك أثـراً جميلاً في نفسهـا . ولا يفوتني أيضاً أن أبدو أكثر اللاعبين خفـة وذكاء وقدرة على خلق الفكاهة ، وعيني شاخصة إليها لا تبرحها ، ويالها من نشوة عذبة تلك التي تمتلكني عندما أراها في ركنهـا تنـظر إلينـا متـابعـة لعبنا باهتمام ، والابتسامة العذبة لا تفارق وجهها .

أقول لصديقي :

ـ « مرشدة حلوة ! »

يبتسم بسذاجة ، ولا أتبين لكلامي أي أثر في وجهه .

وأتساءل :

ـ « لماذا لا تلعب مرشدة معنا ؟ . »

ـ « لأنها لا تحب اللعب » .

وذات صباح يرق الزمن للهفتي ، فتتقدم نحوي صديقة جريئة لمرشدة ، تتأود وتميس في دلع وثقة ، وتسألني :

ـ « أتلعبون معنا لعبة ( الطاء طاء طائية ) ؟ . »

وأسألها بلهفة وفضول :

ـ « مع من ؟ . »

ـ « أنا ومرشدة وسمر . . »

يخفق قلبي فرحاً لسماع اسمها ولرغبتها في اللعب معنا ، ويستحوذ عليّ شعور لا أستبين منه الا أنه باعث لغبطة سحرية ملكت عليّ مجامع نفسي ، وأجبت دون تردد والفرح باد على وجهي :

ـ « نعم نلعب ! . »

وأراهـا تبرح ركنهـا ، وتتقـدم منـا خجلة بطيئة الخطا ، ووجنتـاهـا تتـوردان حياء وخفرا . تصبح بقربنا مع زميلاتها ، تقف عن كثب منـا وادعـة كالحمامة ، وأتبين في عينيها لهفة لا تعـرف لها تصريفـاً ، أبتسم لها ، وتبتسم لي وتسـدل أهـدابها خجلاً ، وأشعر أن قلبي يغرق في نشوة مثلما يغرق عندما تهبط أرجوحة العيد . أنسى من حولي وتغيب عني ضوضاء الباحة ، وتهب نسمـة حاملة معهـا عبق عريشـة الياسمـين المدلاة فوق مدخل المدرسة ، وأسألها :

ـ « أتلعبين معنا ؟ »

تنطلق ملامحها بالإيجاب ، وتكتفي بأن تومىء برأسها .

بيد أن عمر الفرح قصير .

يتناهى إلينا صوت احدى المدرسات تنادي : مرشدة . . مرشدة . .

تخف مرشدة نحوها : نعم آنسة ؟ . .

تعالي . . البابا ينتظرك في الخارج .

وأعلم أنها راحلة مع أبيها وأكره أن أصدق أنها لن تلعب معنا .

ويقـرع الجـرس معلنـاً عن انتهاء الفرصة وبداية حصة القراءة والاملاء . .

الرياض ٢٣/١١/١٩٨١

## مـــوت نظيـرة خانـم

نظيرة خانم امـرأة دميمـة عبـوس ، تجاوزت الستين من عمـرهـا . . مات زوجهـا حسني أفنـدي في الحـج اثـر ضربة شمس ، وترك لها المال دون الأولاد . .

أضحك ذات يوم على شكلها فتنهرني أمي :

ـ « أتضحك على خلقة الله . . ! »

قصـيرة جداً ، ونحيلة مثـل العـود ، ووجههـا مستطيل يتـوسـطه أنف كبـير مفلطح ، وتضع على عينيها نظارة سميكة تبدو عيناها من وراء زجاجها وكأنهما حبتا خرز . .

لم أرها يوماً تبتسم ، مقطبة دوماً ، وتعمل في بيتها الكبير بقابلية عجيبة دون أن تهدأ ولكن بعبوس قاتم وصمت مطبق . .

يسكن معهـــا في بيتهـا الكبـير أختهـا شفيقـة وزوجهـا وأولادهما الثلاثة . . يعيشون معاً في صمت ، وسرائرهم تطوي العجب . .

ونـظيرة خانم ماهـرة في الـطهـو ، ولا سيما الكبـة بكـل صنوفها . . يقصدونها الجيران في الولائم على الرغم من عبوسها القاتم لتصنع لهم الكبة . . لا ترفض طلباً لجارة وتقوم بمهمتها راضية ولكن بما عرف عنها من عبوس وصمت . .

تقـول النسوة في الحارة إن في حياة نظيرة خانم حكاية ، وانها لم تكن عبوساً في مقتبل عمرها . . يقلن إنها تكره زوجها ، وأنـه لا علاقـة لعقـره بهذا الكـره ، وأنها تكره أختها شفيقة ، وشفيقة تكرهها ، وزوج شفيقة يكره الاثنتين معاً ويطمع بثروة نظيرة . . وهنـاك كلام غير هذا الكلام ، حكاية قديمة تلوكها ألسنـة النســوة عن زوج نظيرة خانم الـراحـل حسني أفندي ، وأختهــا شفيقــة التي كانت جميلة بالقياس إلى أختهــا نظيرة وتصغرها بسبع سنوات . .

وذات يوم تطلب أمـي من نظيرة خانــم أن تصـنــع لها الكبـة . . أقترب منها وهي متربعة على بساط في غرفة الجلوس تكـور أقـراص الكبة براحتيها ، وأديم النظر إليها وأنا منتصب

أمــامهــا دونــها حراك . . لا تنــظر إليَّ ، بل ربــها لا تشعــر بوجودي . . ولست أدري ما الذي دفعني أن أسألها :

ـ « هل تحبينني يا خالة . . ؟ »

تنـظر إليّ بعينيها الخرزيتين وتبتسم . . ! لأول مرة أراها تبتسم . . ! وتجيبني :

ـ « طبعاً أحبك »

ثمّ تتابع قائلة :

ـ « أعطني كأس ماء الله يرضى عليك . . »

أطـير من فرحي . . الخالة نظيرة ابتسمت لي . ! الخالة نظيرة تحبني . ! أهـرع وأجلب لها كأس ماء وأجلس إلى جانبها وأحـدثهـا ، وأعجب أنها تحدثني برقـة وأنها تحبني ، ويعـتريني شعور خفي أن الناس يظلمون الخالة نظيرة . .

وتغيب نظيرة خانم لم يعـد يراهـا أحـد ، ولم تعد تصنع الكبـة لأحد ، أسأل أمي عنها فتقول إنها مريضة ، وأعلم أن مرضها عضال . . يشتد شوقي لأن أرى الخالة نظيرة المرأة التي لم تبتسم لأحد إلا لي . .

ثم تموت نظيرة خانم . .

تموت في صمت ، وتخـرج جنـازتها في صمت ، ولا يؤم

الجنـــازة إلا نفـر قليل منهم زوج أختهـا ، وشيخ الحـارة وأبـو معروف دلال البيوت ، وحشد من الصبية . .

وذات مساء أسمع جارتنا ( فهيمة ) تقول لأمي :

ـ « لقد قتلوها يا أم محمد ، قتلوها وتخلصوا منها واستولوا على بيتها ومالها . . »

ـ « أمعقول هذا الكلام يا فهيمة خانم . . ؟! أيعقل أن تقتلها أختها من لحمها ودمها . . ؟! »

ـ « كانـــوا يعـــطونها الحبـــوب المنـومـة كل يوم وبـدون توقف . . كانت كلما أفاقت تطعمها أختها شفيقة وتأخذها إلى المـرحـاض ثم تعيدها إلى فراشها وتعطيها الحبة المنومة كانوا لا يريدونها أن تفيق » .

ـ « أعوذ بالله . . !! »

ـ « كنت عندهم لمعايدتها يوم دخلت عليها أختها شفيقة فلم تجدها . . بحثنا عنها في كل مكان ، وبدت شفيقة مذهولة من اختفائها . . وأخيراً وجدناها ميتة تحت السرير . . »

ـ « تحت السرير . . !؟ وماذا كانت تفعل تحت السرير ؟ »

ـ « هربـت من الـنــوم . . أدركت أنهم لا يريدونها أن

تفيق . . فاختبأت تحت السرير ليأتي أجلها تحته وتنام إلى الأبد . . »

ومـــع الأيام تطوى صفحـة نظيرة خانم وتستقـر في عالم النسيان والأبدية . . أما أنا فلم أنسَ بسهولة أن الخالة نظيرة قد قتلت وأنني ربما أكون الانسان الوحيد الذي ابتسمت له . .

الرياض ١٩٨٣/٧/٣١

# الخـــــوف

يبكي الصبي حتى تتـورم عينـاه ويرفض الـذهـاب إلى المدرسة رفضاً أثار غضب أمه . تصرخ الأم في وجه ولدها :

ـ « ما بك ؟ . . ليسـت هذه أول مرة تذهب فيهــا إلى المدرسة . . سأضربك إنْ لم تكف عن البكاء » .

بيد أن الأم سرعان ما تهدأ . . وتعود حمامة وديعة تغمرها دفقـة حنـان تجاه ولـدهـا . تحاول أن تعـرف منـه سبباً لرفضه الـذهـاب إلى المدرسة . تقرفص الأم وتضم ولدها إلى صدرها وتمسـح شعـره الأشقـر براحتيهـا . يزقـزق عصفور على شجرة المشمش الهنـدي في فنـاء الـدار وتلبد قطة تحت الشجرة دون حراك وعيناها منغرزتان على الغصن حيث يغرد العصفور .

ـ « ما بك اليوم يا حبيبي ؟ لماذا لا تريد الذهاب إلى المدرسة ؟ »

تجفف الأم دمــوع ولـدهـا بمنـديله الأبيض . ويجيبهـا بصوت مجهش :

ـ « لا أريد : . أن أذهب . . إلى المدرسة » .

ـ « لماذا يا حبيبي ؟ المـدرسـة حلوة ، وفيهـا رفـاقـك ، وألعاب مسلية ، وفسحة للعب » .

يرفـع الصبي عينيه المتـورمتين في رجائه الأخير وكأنه في طريقه إلى ساحة الموت ، ويثبتهما في عيني أمه ويقول وهو يجهش :

ـ « مامــا . . الله . . يوفــقــك . . لا أريد . . أن أذهب . . إلى المدرسة »

ـ « إذا ذهبت إلى المــدرسـة سأعـطيك ( قضـامـة على سكر ) . . ما رأيك ؟ »

لا يفكــر الصبي بالقضـامـة أو غيرهـا من الحلوى هذا الصباح . . إنه يفكر بالدرس الذي لم يحفظه أمس . . والأستاذ ظالم لا يرحم ، ويخاف أن يخبر أمه بأنه لم يحفظ درسه لأنها رأته وهــو يلعب أمس . . يصمت الصبي وقـد جف الـدمـع في مقلتيه ، ويجـد نفســه مرغـماً على الذهاب فأمه مصرة وكأنها لا تحبه . وها هي يدها التي أتته بالقضامة منذ قليل تدفع به برفق

نحو الباب .

ـ « ما في مثلك في الدنيا كلها . . شاطر وتحب المدرسة »

يخرج الصبي ويتجاوز عتبة البيت . . يحمل في يده محفظته وقد أثقلت بالكراسات والكتب . يلتفت للمرة الأخيرة إلا أنه لا يجد أمه فقد توارت خلف الباب وأغلقته .

يجوب الصبي الحارات القديمة . . ومع كل خطوة يبتعد فيها عن البيت يغوص قلبه الصغير في ظلمات من الخوف . ها هو يقترب من المصير . . يجتاز الحارة الأخيرة ، ثم يبلغ بوابة المدرسة . يعتريه خوف تتشنج معه ملامحه الغضة وتجمد البراءة في عينيه . المصير المرعب يقترب . . ليس هو الوحيد الخائف . وجوه التلاميذ كلها مصفرة كأوراق الخريف والخوف ينهش ملامحها الوديعة . يصطف التلاميذ رتلاً ثنائياً . الكل يرتدي صداريات سوداء . . وفي المدرسة أيضاً شجرة مشمش هندي لكنها ليست جميلة مثل الشجرة التي في البيت وفيها أشجار ليمون وأصص زهور . يدخل التلاميذ صفوفهم دون أن يجرؤ أحدهم على أن يصدر همسة ، فالمدير يقف هناك قرب شجرة ليمون كالمارد والعصا في يده ، شارباه مخيفان ولحية مدرس العربي مخيفة أيضاً تماماً مثل عينيه . كلهم يثيرون الخوف ،

حتى هذا الصديق الذي كان وديعاً ذات يوم وحين أصبح عريفاً للصف استحال مخيفاً مثلهم .

الآن . . يجلس الصبي و زملاؤه في غرفة الصف دون أن ينبسوا ببنت شفة . فالحصة الأولى والثانية من كل يوم للأستاذ عبد الجبار ، مدرس اللغة العربية . وبما أن الأستاذ عبد الجبار ثخين ولحيته سوداء مخيفة مثل عينيه وحاجبيه الكثين ، ولأنه لا يبتسم أبداً ويضرب بقضيب الرمان لأتفه سبب فان التلاميذ تكاد تنقطع أنفاسهم كل صباح من الهلع .

يدخل الأستاذ عبد الجبار غرفة الصف . . يقف له التلاميذ إحتراماً . . يشير بيده أن اقعدوا . ويتفجر صوته صارماً رزيناً :

ـ « أخرجوا كتب النصوص » .

يخرج الأولاد كتب النصوص دون ضوضاء . وعلى الفور

ودون إضاعة للوقت يشير الأستاذ إلى تلميذ دون تعيين فتقع الإشارة على ذاك التلميذ كالصاعقة :

ـ إقرأ أنت .

ويقرأ التلميذ وقد انكمشت أنفاسه :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً من الحسن حتى كاد أن تكلما

فان أحسن التلميذ نجا من العصا وان أخطأ يهوي عليه قضيب الرمان، على أصابعه ويديه ورجليه ، وكثيراً ما يخطىء التلاميذ الصغار .

وتمضي الحصة الأولى وكأنها قرن من الزمن ، وتدخل الحصة الثانية والاستاذ يهوي على التلاميذ بعصاه ويشير دون تعيين : إقرأ أنت .

ويقرأ تلميذ آخر وينهال قضيب الرمان على أصابعه :

ـ « يا عدو الله . . يا عدو العربية . . »

اثنان فقط أحسنا القراءة والباقون ما زالوا يتوقعون المصير المرعب في كل لحظة .

ويشير الأستاذ عبد الجبار إلى الصبي :

ـ « أنت . . ستقرأ بعد زميلك . »

يتسمر الصبي في مكانه . تضرع عيناه في امتثال : « يا رب » . . ويغرز اصبعه تحت السطر وعيناه تتبعان قراءة زميله خشية أن يتوه فتكون الطامة الكبرى . يمضي الوقت ثقيلاً . كل ثانية تنطوي على خوف وترقب . . فربما يستوقف الأستاذ زميله في أي لحظة ويطلب منه أن يتابع .

وعلى حين غرة يقرع جرس انتهاء الحصة الثانية !!

يثب الفرح في مهجة الصبي ويتمنى لو يصرخ بكل ما أوتي من قوة ويدور ويعانق كل من في الصف حتى الاستاذ عبد الجبار نفسه . تغمره سعادة لم يعرف لها طعماً من قبل وتبدو الدنيا . . كل الدنيا حلوة في عينيه . . حتى ضوضاء التلاميذ وأعمدة المدرسة وجدرانها الرطبة ، والأستاذ وعريف الصف وشجرة المشمش الهندي كلها تبدو وكأنها أجمل ما في الدنيا .

وفيما هو ينتحي ركناً في الباحة يمر الأستاذ عبد الجبار قربه متوجهاً إلى غرفة المدرسين . ينظر الصبي إلى أستاذه نظرة فيها خوف وحذر ومهابة ويقول في سره :

« ليتك لم تكن ظالماً يا أستاذ » .

الرياض ١٥/٩/١٩٨٣

# شجـــرة الحـــور العتيقـــة

يسري الخبر في الحي سريان النار في الهشيم .

مصطفى قتل أخته حليمة !!

يذهـل الكبـير والصغـير في الحارة . . شيء لا يصدق ! حلم أم علم ؟! أيعقل أن يقتل مصطفى أخته حليمة التي ربته وأولته رعايتها كل هذه السنين الطويلة ؟ وتجري رائحة الموت في حارات الحي ، ويشيع في الجـو عبق الجـريمـة والدماء ، تثار تساؤلات مبهمة فالوقت ما يزال مبكراً لمعرفة كل شيء .

المكـان ضيق . إنـه الـطريق الـذي يصـل حي العقيبـة بالأحياء الحـديثـة . عن يمـين الـطريق تمتـد البيوت الـطينية القديمة في خط متعرج كالأفعى ، وعن يساره يمتد سور المقبرة المتهدم وحاصل الخشب .

الوقت شتاء . والتلاميذ يسرعون إلى مدارسهم فالساعة تكاد تقترب من الثامنة صباحاً ، والدواب تعود من سوق الهال إلى بساتين الديوانية بعدما أفرغت أثقالها ، والغيث كف عن الهطول مذ أطلت الشمس بنورها الأشقر من خلف شجرة الحور العتيقة عند بوابة المقبرة . ولكن الجو ما زال يعبق برائحة المطر والحركة باردة ، فاليوم من أوله والناس رائحة إلى أرزاقها .

- « صباح الخير عم عبده » . .

- « صباح الخير . . تفضل » .

وتدوي في المقبرة رصاصتان . تسقط اثرهما جثة امرأة ملفعة بملاءة سوداء . يقفز مصطفى من على سور المقبرة المتهالك إلى الطريق الضيق ليودع رأس أخته الرصاصة الثالثة . يرتعد الناس وينتشرون بعيداً . يزعق التلاميذ كالنساء . يغطي مصطفى ساق أخته الأبيض الذي انكشفت عنه الملاءة السوداء فيما هي تلاقي الأرض الموحلة . لم يهرب مصطفى . يرتد الناس من انتشارهم ليشكلوا حلقة . . يا للهول !! وتضيق الحلقة حول القتيلة والقاتل ، ويشتد الزحام . . شرطي كان يعبر الطريق يمسك بيد مصطفى ويخرجه من وسط الحلقة البشرية . عينا مصطفى تحدقان في

الفراغ كالصقر .

ماذا في الأمر ؟!

مصطفى قتل أخته حليمة !

لماذا ؟

لا أحد يعلم . .

بيد أن الشائعات بدأت تجتاح حارات الحي والأحياء المجاورة . ثمة همس في الأمر . همس يمس الشرف والشرف مسألة مدمرة قاتلة . .

وتصبح حليمة وأخوها مصطفى حديث الحارة . تقول جارتها أم لطفي :

ـ « شيء لا يصدق ! شيء لا يدخل العقل ! حليمة أطهر من كل ما يقال »

وتسأل أخرى مرتابة من أمر حليمة :

ـ « إذن لماذا قتلها أخوها ؟! »

ـ « من يدري إن بعض الظن إثم . . »

وتقول إزدهار العانس :

ـ « يقولون : إنها كانت تحب شاباً منذ زمن طويل . . »

تصمت النسوة ويرهفن أسماعهن .

تتابع إزدهار :

- « ويقولون إن هناك علاقة بينهما . . وإنها حامل . . وإنها . . »

تقاطعها أم لطفي الجارة :

- « كل هذا الكلام غير صحيح احفظن عرض هذه المسكينة واذكروا محاسن موتاكم ، أنسيتن حليمة . . أنسيتن أخلاقها الطيبة ؟! »

وتقول العانس في حدة مشوبة بالحيرة :

- « إذن لماذا قتلها أخوها ؟ أهكذا بدون سبب ؟ »

وتقول أم لطفي بنبرة تشي بانهاء الحديث :

- « العلم عند الله . . »

وتسأل الست بدرية ، وهي عجوز صموت :

- « من سيسقي أصص الورد والياسمينة والدالية في بيت حليمة ؟ »

تنتبه النسوة إلى أن واجباً يجب أن يقمن به . فالبيت خال . . حليمة تحت التراب ومصطفى في السجن والورود والدالية والياسمينة وكل عرق أخضر بحاجة إلى ماء . . فالغيث لا يسقي إلا الأحواض المكشوفة أما الأصص غير المكشوفة

فستموت لا محالة .

ولكن سرعـان ما يفقن إلى حقيقة ثانية أن حليمة ماتت ومصـطفى في السجن وأنهما لن يعودا إلى بيتهما فلمَ إذن يعنين التفكير بورود ودالية وياسمينة حليمة .

ومع غبش فجر اليوم التالي تهطل أمطار غزيرة . ثم تطل الشمس من خلف شجرة الحور العتيقة عند بوابة المقبرة . وتعود الحركة باردة فاليوم من أوله والناس رائحة إلى أرزاقها .

- « صباح الخير عم عبده » . .

- « صباح الخيرات . . تفضل » . .

الرياض ٥/١١/١٩٨٣

# عبرة من الحي القديم

تنساب أنفاس الفجر الباردة في خلايا حي العقيبة . يصيح ديك من مكان ما من مشارف الحي ، ومع ادبار الظلمة يرتفع أذان الصبح من المآذن وكأنه آتٍ من أعماق الزمن . تفيق العصافير . ثم يفيق الخلق ، وتداعب أنسام الصباح الباردة أغصان أشجار الكباد والليمون وعروق الورد والرياحين .

يستيقظ كل شيء في بيت الحاج طيفور الحلاق . تغرد العصافير على أغصان الشجر ، وتتمطىَ قطة وتقفز أخرى من السطح إلى المطبخ . . أم أحمد توقد مدفأة الحطب ، والحاج طيفور يهبط السلم ببطء ليتوضأ من مياه البحرة في أرض الديار .

ـ « أصبحنا وأصبح الملك لله . . قم وتوضأ يا أحمد »

قال الأب عندما بلغ باب غرفة أولاده .

ـ « حاضر يا أبي » .

يدفع الصبي الغطاء من على بدنه الغض فتلسعه برودة الصباح . يجتاز أخوته الذين ينعمون باغفاءة الصبح اللذيذة . يأتيه صوت أمه دافئاً :

ـ « الله يرضى عليك يا أحمد غطِ اخوتك » . .

وتضع الأم إبريق الشاي على وابور الكاز . . يلحق الصبي أباه إلى البحرة ليتوضأ . . ينوي الحاج الوضوء . . ثم يتبعه صوت نحيل مرتعش يغالب بقايا نعاس :

ـ « نويت الوضوء من هذا الماء الطاهر » .

يتابع الحاج طيفور نصحه لابنه فيما هما خارجان من الدار إلى جامع « التوبة » في صدر الحي :

ـ « رضى الله والوالدين يا بني هما رأس مال الانسان في الدنيا والآخرة » .

يرفع الحاج طيفور يده ويرد على تحية الشيخ كامل الذي دلف إلى الطريق من دخلة ضيقة :

ـ « وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته يا شيخ كامل » .

يجذب الحاج طيفور يد الشيخ ليقبلها . يسحب الشيخ يده :

ـ « أستغفر الله يا بني . . الله يرضى عليك ويرحم تراب أبيك »

ويلتفت الشيخ إلى الصبي ويقول له :

ـ « أبـوك ليس له مثيل . احـرص على رضاه . . رضى الأب من رضى الرب » .

ويدلف الأب والابن في طريق الحـــارة المتعـرج . تدب الحـركـة شيئـاً فشيئاً في عروق الأزقة والحواري . يجتازان موقع « البحـرة الـدفاقة » التي تسقي الدواب القادمة مع الفجر من البساتين ، ويسيران على طول الطريق المخدد المفضى إلى جامع « التـوبـة » يغيب صوت الأب في البعـد كلما تقدما في سيرهما حتى تتلاشى مع تلاشي جسديهما .

وتنتهي الصلاة . .

ـ تقبل الله .

ـ منا ومنكم . .

تشتـد حركـة الصبح . . تتطاول صيحات . . أصوات باعـة . . حدوات أحصنـة . . جرس دراجـة . . قرقعـة عربة يجرها بغل . . يهرع الصبي إلى دكان أبيه الحلاق لينظفها ويعد العدة قبل أن ينتهي أبوه من ورد الصباح في الجامع .

وفجـأة تتفجر جلبة من صلب الحي ، قرب الجامع . . صراخ محتد . .

ـ « تكاد تقتله ! »

ـ « دع هذا العجوز المسكين . . »

ـ « يا ويلك من الله يا جبار . . »

ـ « أعوذ بالله من غضب الله . . »

تنـدفـع النـاس صوب الصراخ . . يا فتاح يا عليم . . اللهم اجعله خيراً . .

الصبي مشـدوه أمـام دكان أبيه . . عيناه منغرزتان نحو الجلبة والصراخ . . ماذا هناك ؟

يتردد الصبي ولكن سرعان ما يجد نفسه مدفوعاً بفعل قوة عجيبة غامضة فيطلق ساقيه للريح صوب الزحام والصراخ .

يا إلهي !!

أي قسوة هذه !!

راعـه أن يرى رجـلاً طويلاً ، عريض المنكبينْ ، قاسي الملامح يجر على الأرض عجوزاً ضامراً من قدمه . تهرع الناس إليه لانقاذه . وكلما دنا أحد منه رفع العجوز يده وقال بما تبقى لأنفاسه من قوة :

ـ « دعوه . . دعوه . . ما آن الأوان بعد »

يختلط الصراخ بالصمت ، والـذعـر بالعجب ، وتنعقد الـدهشـة في الوجوه الذاهلة ، والجبار ما يزال يجر العجوز من قدمـه والعجـوز صامت كالموت وفي عينيه كلام وامتثال لحكمة الزمن وعتوه .

يزداد ذهول الخلق ذهولاً . . يبكي الصبي لهول ما يرى وينكمش جســده الغض ، والجلبـة تعلو وتعلو . . والـزحـام يتراكم من كل صوب وحدب . تصرخ الناس . . تتحوقل . . والعيون مشدوهة من هول مشهد هذا الصباح . . الكل يريد أن يفعل شيئاً والعجوز يأبى أن ينقذه أحد ! ويقول :

ـ « دعوه . . ما آن الأوان بعد »

وينقضي النهـار . . تجري في دمـائـه عبرة من عبر الحي القـديم . . ومع حلول الظلمة يجثو التعب والخمول فوق صدر الحـي . تغـلق الحـوانـيت . . تخلو الـطرقـات من الخـلق والـدواب . . تدب الحـركة في مقاهي الحي . . تعبث القطط بأكوام القمامة . . يغالب النعاس الصبي أحمد وهو جالس على كرسي في دكان أبيه .. والحاج طيفور ما يزال يمرر مقصه على رأس زبون بعينين ناعستين ، والحديث ما يزال دائراً بين زبائن

آخر النهار :

- « . . إنها والله لمن علائم يوم القيامة . . أيعقل يا ناس أن يجر الولد والده من قدمه ؟! »

- « لم تصدق عيني ما رأت »

- « إنها حكمـة الله الـذي يمهل ولا يهمل . . لقد ظل الولد يجر والده حتى موقع « البحرة الدفاقة » . هناك رفع الأب يده وصرخ :

- « كفى إلى هنا يا بُني . . لقد جررت أنا أبي إلى هنا فقط » .

ويرتفع صوت الحاج طيفور :

- « الله أكبر » .

الرياض ٥/١/١٩٨٥

# البــداية والنهــاية

(١)

حرك شفتيه الغضتـين في وجه من لون الحليب .. لفظ أول حرفـين : ( ما ) ، ثـم أتبعهـما بالحـرفين الآخرين (ما) ، فشكلت الأحرف كلمة . . أول كلمة : ( ماما ) .

فرحت الأم وفرح الأب . . صاحا من السعادة . . قبلا طفلهما . . نادت الأم أمها :

- « أمي . . أمي . . سعيد قال : ماما ! »

- « اسم الله عليه . . حوله وحوليه . . والله مبكر على الكلام ! »

عنــدهـا تنفس الصبـح ، وتفتحت براعم البنفسـج في الـبراري العـذراء ، ثم ألقت شمس الصبـاح أشعتها الشقراء الدافئة على أديم الحقول الندية .

(٢)

حرك شفتيه . . نطق الإجابة الصحيحة . .

انتشى المدرس من إجابة تلميذه الذكية .

ـ « أحسنت يا سعيد . . أتنبأ لك بمستقبل زاهر » .

حينها كانت الغيوم سخية . . وكانت الأرض تستقبل وابل الغيث بفرح طفولي ، وعندما انداحت السحب عن الشمس كانت خيوطها الذهبية المبثوثة من خلال ثلمات أغصان الأشجار تداعب الأعشاب الخضراء والهوام الساعية إلى رزقها .

(٣)

حرك سعيد شفتيه . . قالها :

ـ « أحبك . . »

وتوهج وجهه بحمرة الخجل ، تلك كانت التجربة الأولى . . الأنثى الأولى وها هو يقولها لأول مرة .

أجابته عيناها بالأحاسيس نفسها . . بالتوق نفسه . . بخفر أنثوي عصف شوقاً لذيذاً في قلبه .

وقتها كان الربيع يسكن خلايا الحقول الخضراء . . وكانت الأشجار مثقلة بالزهر الأبيض وزقزقات عصافير

الـدوري . . وكـانت الصبايا يغنين وهن يحملن جرارهن قرب العين في كبد الحقول .

(٤)

حرك شفتيه . . أقسم اليمـين مع الآخـرين . . تفجـر القسم من أفـواههم كالصواعق : أقسم بالله العظيم أن أكون مخلصاً لوطني . .

زغردت أمه عندما رأته قادماً والنجمتان تلمعان على كتفيه :

ـ « والله كبرت يا سعيد وأصبحت ضابطاً » .

حينهـا كانت الجياد تعـدو بكـبرياء في الوديان العارية ، وتنـدفـع عبر شعـاب الجبـال الضيقة كأنها السد العرم . . أما الشمس فكانت تلهب بسياطها الوديان وسعف النخيل .

(٥)

استـطاع أن يحرك شفتيه . . مضـغ دمـاً حاراً . . دفعه بلسـانـه فسال الدم على خده بغزارة وروى تراباً مشبعاً بحمرة الشمس الـراحلة . ثبت عينيه في الأفق البعيد رأى قطيعـاً من جياد تعـدو . . تشق البعـد مسرعة ، وكانت أصوات حوافرها

تقـترب منـه شيئاً فشيئاً وهي تلتهم أرضاً صلبة . التصق خده بالأرض . . أكثـــر ، استشعـــر دفء بقعـــة الـــدم الآخـــذة بالاتســاع . حاول أن ينطق أن يحرك شفتيه . شفتـاه كانتـا ساكنتين . تجمد بريق عينيه ونطق قلبه بكلمات حبيبة واختزنت ذاكرته صوراً حلوة طواها العدم .

في تلك الأثناء كانت الشمس تلقي آخر خيوطها الحمراء على السهول المعشوشبة ، وقطعان الماشية تعود مع الظلمة تجاه الغرب ، فيما كان الراعي يصغي بتوجس إلى عواء ذئب آت من خلف الجبال التي غدت من لون الظلام .

الرياض ٢٢/٢/١٩٨٥

# البئـــــر

## العـــروس

لقد مضى ذلك الانتظار المضني ، وها أنت أمامي حلماً تحقق باصراري على أن تكوني لي . . لي وحدي . . وأن أحداً لن يستـطيع أن يسرق ثمـرة اصطباري . وليلة الغد سترتدين ثوب الزفاف يا عروسي . وفي غرفتي البسيطة ، التي تطل على حقــول الخس ، سأقـطف حمرة الخجـل من وجنتيك فيما أنت تدارين حياءك بالنظر إلى القمر ، وسنعيد حكايات زمن الشوق وسنحـاكي النجـوم المتـلألئـة في حلكة السماء ، كما كنا نفعل دوماً . بيد أننا في هذه المرة سنزف إليها فرحنا وستزرع السماء في رحابتها نجمة جديدة .

## العجـوز والطفـل

غداً عندما تصبح السماء خصيبة بحمرة الفجر ويتناهى إليّ ، وأنـا أرمق بلدتي الصغـيرة من خلف نافـذتي ، صوت حدوات حصان ، عندها أعلم أن جدي قادم في موعده ، وأنني سأراه من خلال ثلمات الأشجار متخللاً سديم الفجر ، فأهرع وأرتـدي سروالي الجـديد ، وأضـع في محفظتي الكراس والقلم والممحـاة ، ولن تنسى أمي من أن تضـع في محفظتي ( عروسة الزعتر) ، وسيناديني جدي فيما هو يربط حصانه في حوش الدار :

- « يا فارس . . » .

وسألبي نداءه بكل ما في قلبي من فرح :

- « إني آت يا جدي » .

وأمتـطي حصانه وأطوق خصره الضامر وأركن إلى هدأة المدى وأنا أرمق حقول الخس الموصولة بالأفق البعيد .

## البئـــر

جاء يوم انتشر فيه خبر البئر ، كتبت الصحف أن رجلاً كان يسـير بالقـرب من البئـر شم رائحـة نتنـة أثـارت فضـوله

وأشاعت فيه الذعر . فقد تذكر لتوه كل هؤلاء الذين اختفوا ولم يعودوا إلى ديارهم .

وروى شاهد عيان آخر عملية اخراج الجثث من البئر . قال إن أغلبها كانت مهشمة الرؤوس ، وأنهم قد انتشلوا جثة رجل عجوز عليها آثار ضربات فؤوس وآلات حادة ، وجثة طفل في السادسة من عمره على ظهره محفظة مدرسة . كما تبين أن عروساً أحرقت بثوب الزفاف .

صمت شاهد العيان وأشاح بوجهه عن الخلق ، فلقد تذكر أن الرائحة النتنة كانت نفاذة بشكل كريه ، وراعه أنه كان يعرف الجميع .

يقال إنه مر على ذلك اليوم حوالي الأربعة أشهر . هذا ما أقره الطبيب الشرعي . ساد صمت كئيب شمل بلدة ( الجية ) . . صمت طوى في أعماقه زمناً مهشماً . وتمضي الأيام وتظهر براعم صغيرة على أغصان الأشجار وبقيت الحشائش في البساتين محافظة على نضرتها وكأنها مصرة على أن تبقى خضراء .

الرياض ١٩٨٧

# درب الكينـــا

يعـانق عبق الـربيع هامـاتنـا . كنـا فتية ندرج بثقة عبر الـدرب المفضي إلى الملعب . فوح أشجار الكينا ـ الممتدة حتى عمق ذاك الدرب الدمشقي ـ يوقظ في النفس توق الشباب إلى البطولة .

كنـا أحيانـاً نتسـابق ، ونقفـز إلى أعـلى لنـطال أغصان الكينـا ، ونفركها براحاتنا ونتنشق ـ آة ياتوفيق ـ أتنشق عطرك المسكي . تعـود لذاكـرتي بقـامتـك النحيلة ، وبـبريق عينيك الباسلتين . ذات يوم سألتني فيما كنا ننسج معاً أفقاً لا تبهت ألوانه .

ـ « هل قرأت لمحمود درويش ؟ لقد غرس أبدع نبتة في ترابنا الحزين »

وجعلت تنشد :

( يا أصدقاء الراحل البعيد

لا تسألوا : متى يعود

لا تسألوا كثيراً

بل اسألوا : متى

يستيقظ الرجال )

وتــركض . تطير يا توفــيق . . تطير عالـياً ، وتـقـبض براحتـك الفتية على وريقـات الكينـا . أرقبك وأنت تذوب في البعد . كدت أناديك :

ـ « عُد يا توفيق . . لا ترحل » .

كنت كالصقـر تطير . . كالحـمامـة . . كذاك العصفـور الوديع الذي بنى عشه في قلب أم ثكلى .

جميل أنت في الفضـاء، نيزك يشق حلكـة السماء . ويوم طلعت علينـا عبر درب الكينـا ببـزتـك العسكـرية الـزرقـاء والنجمتــان تتــلألآن على كتفيك انتشيت فخــراً واعتصرتني غصة . . فكل ما فيك كان ينبىء بأنك ستغيب .

كنت ضيفنا لأيام يا توفيق . .

وحـل تشرين ودويّ المـدافـع يتنـاهى لمسامع المدينة من

خلف المدى البعيد . وعند كل مغيب كنت ألمح أمك من وراء النافذة ترامق نجمة في السماء . وكم تساءلَتْ :

- « أتراها ستغيب ؟» .

حقاً لقد كنت ضيفنا يا توفيق .

فالنجمة غابت . هوت فوق قمة جبل الشيخ . . فوق تاجه الثلجي . وألفيت نفسي أُردد فيها كانت ذكراك تتضوع بعبق أشجار الكينا .

( يا أصدقاء الراحل البعيد
لا تسألوا : متى يعود . . . )

الرياض ٢٢/١١/١٩٨٨

# وأزهــرت الحجـــارة

## الأقصـــى

قال الأقصى لطفل كان يتلفت حوله :

ـ « عما تبحث يا ولدي ؟ »

أجابه الطفل :

ـ « أبحث عن حجر »

عنــدهـــا اقتــطع الأقصى من جســده القلب وقـدمـه للصغير . فقال الصغير :

ـ « ولكن كيف ستعيش دون قلب ؟ »

أجابه الأقصى :

ـ « قلبي لا ينبض إلا براحاتكم »

ثم طوحه الصغير عالياً ليمطر القهر بحجارة من سجيل .

# نورســـــان من لـــون الطهـــر

أخـــذوهمـا إلى مكـان ناء فيه العشب كسـير ، والأرض أضحت وليمة للجراد .

شقيقـان تبرعم الـزهـر في عودهمـا لتوه . عيونهما حقول ليمون ، وفي قلبيهما شوق لهدير البحار .

غيّب الكبير منهما نظرة صامدة في عيني أخيه أن أصمد يا أخي وتذكر كلمات أبينا من أن المغتصب يقوى عندما نضعف ونلين . فأغمض الصغـير جفنيه ورسم في فضـاء وطنه شمساً كبيرة ونورسين من لون الطهر .

كانوا أربعة جنود بأيدهم السلاح والعصي ، وفي قلوبهم خفاش أفزعته بهرة النور .

بداية الضرب كانت لكـمات على الـوجـه . ثم انهالت الأيدي من كل صوب سريعة قاسية .

قال أحد الجنود لرفاقه :

ـ « عليكم بسواعدهما التي كانت ترمينا بالحجارة »

أمسكوا جميعهم بحجارة مدببة متطاولة الشكل وانهالوا بها ضربـاً على سواعدهما الفتية . صادفت عينا أحدهما عيني أخيه

فآدهما ما فيهما من وجع ، وبكى العشب الكسير ، وناحت الأرض الطيبة ، وتكسرت سنابل النور .

يقال إن الضرب قد استمر دونها توقف خمساً وأربعين دقيقة . . كانت كل دقيقة منها بعمر القهر ، إلى أن أغمي على الشقيقين وانسحب النهار وغابت الغربان ولم يبق إلا الصمت ومشاهدون متكدسون أمام شاشات التلفزيون قد شهدوا كل شيء ، بيد أن أحداً منهم لم يشهد كيف استحالت سواعد الشابين المدماة إلى أجنحة تجوب فضاء الوطن الفسيح نورسين من لون الطهر .

## بلاغة الحجارة

زمن الأمجاد يدنو من سواعدهم . يتكور . يصبح حجراً . الحجر ينبض . يغضب . ينتقم .

الأمهات تلد أطفالاً ناضجين . تقوى سواعدهم في الأرحام . تخرج لتسابق هزيم الرياح .

- « وأنت يا صغيري . . هل تركت المدرسة أيضاً ؟ »

- « نعم . . وانتظمت في الشوارع لأقرأ سفر الأمجاد وبلاغة الحجارة من على جدران المدينة القديمة . اقرأؤها طليقة

في هواء الوطن . . في أهداب الأمهات الحزانى . . وعلى خدود الزيتون والحجارة »

وانـطلق نحـو الغـزاة كمهر يسابق هزيم الرعد . طوح حجـــراً في كيانهم وأدبـر راكضـاً كالشهـاب ، فطواه النهـار في أحضانه وانطفأت غصة في ضلوع التراب الحزين .

## انتصـــــار

أسنـدت الأم رأسهـا إلى قبر ولـدهـا الـرطيب . رمقت بعينيها الحزينتين وردة بيضاء نبتت من صلصال القبر .

سمعت الوردة تقول لها :

ـ « لا تحزني يا أمي . . يا وجه الشمس . . كنت أعرف أنني سأموت . ملَكَ الشهادة قال لي إن الأبطال ترحل بعمر الورود »

دنت الأم برأسها من الوردة . احتوتها نوراً في صدرها ، وجعلت تصغي إليها .

ـ « أمي . . ما أخبار ( انتصار ) ، ابنة عمي ؟ ما أخبار بقية الصغار ؟»

- « ( انتصار ) كعهدك بها باسلة . والصغار ثورة من نار »

تأجج النور في أديم الوردة البيضاء . اهتزت طرباً فأفاقت الأم من ضوع الوردة المسكي ثم أطلقت بصرها في المدى الحزين .

من بعيد ، رأت الأم موكباً جنائزياً يتخلل الشواهد . الهتاف عرس يشق هدأة القبور . دمعت عيناها . أسبلت رأسها وقالت للوردة البيضاء :

- « ها قد أتتك عروسك يا ولدي . . ها قد أتت ( انتصار ) »

ومع برد الصبح ، كان الندى يحط على وردتين بيضاوين قرب القبر .

## وجهاً لوجه

على قمة التلة كان الجنود الصهاينة ينصبون مدفعاً رشاشاً . أما هو فكان ، بكل ما في صباه من تصميم واصرار ، يتسلق التلة على مرأى من عيونهم . لم يأبهوا لوجوده بل استمروا في عملهم فيما كان يتقدم في صعوده بصعوبة مستعيناً بساقيه

حيناً وبساعديه حيناً آخر .

لقد بذل جهداً مضنياً بيد أنه قد وصل . وها هو وحده غير بعيد عنهم منتصب أمـــامهم وجهـــاً لوجـه . . هو وحـده بصحبة حجر ، وهم ثلة من الجنود مع مدفعهم الرشاش .

لقـــد رأينـاه جميعـاً على شاشـة التلفـزيون ، وربـا بدا للكثيرين منا أنه من الحكمة أن يلوذ بالفرار قبل أن يلحقوا به أذى . ولكن ما حصل كان خلاف ما توقعناه ، فقد لوح بحجر وألقاه صوبهم .

انتهى المشهـد وهو منتصب كالرمح غير هياب فيما كانوا ينقضون عليه .

## شهيـــد الفجـــر

كان مقعياً وقد طوق ركبتيه بساعديه وعيناه شاخصتان في الأفق ينتظر بزوغ الفجر .

لم ينم ليلتهـا ، بل تسلل إلى سطح البيت بعـد أن جمع أمامه كومة من الحجارة .

كانت يده الصغـيرة قابضـة على حجـر ينتظر مرور أول جندي مع بزوغ الفجر ليطلق أول حجر مع فجر يوم جديد .

بالأمس سمع أحد أصحابه يقول :

ـ « اليوم كنت أول من ألقى حجراً على جنودهم » .

فود أن يكـون هو الآخـر صاحب أول حجـر يلقى على جنودهم فجر هذا اليوم .

من بعيد ، لمح سيارة دورية تسـير ببطء قادمـة من نهاية الـطريق الـذي يفضي إلى حيه . وقف متـأهباً كنمر جائع لمح فريسته . كان الفجر على شك أن يصبح خضيباً ، وأنوار سيارة الدورية تلهث مسعورة على جدران الحي الحجرية الصلبة .

جمع نفسه وانتصب متأهباً والحجر معد في راحته الصغيرة وقـد طوقـه بأصابعه الخمسة ببسالة . مال بساعده إلى الخلف وأطلق الحجر صوب الدورية بكل ما أوتي من قوة .

كان على يقين من أنه سيصيبها . . ومع بزوغ أول النور مزّق صوت تكسر زجاج السيارة هدأة الفجر . . وتبعه صوت رصاص .

وعندما طلعت الشمس كانت أول من شهد أمام الجميع فيما هم يرفعـون نعشـه على أكتافهم بأنه أول من أطلق حجراً على جنودهم فجر اليوم .

## وأزهـرت الحجـــارة

دنا الصبي من الأرض وجعل ينظر إلى زهرة بيضاء نبتت من فلق الصخر . نادى أخاه :

ـ « تعال انظر . . لقد أزهرت الحجارة !! »

وجعـلا يتـأمـلان الـزهرة البيضاء بعيونهما المشرقة . قال الصغير لأخيه :

ـ « ليت الحجارة في مدينتنا تنبت زهراً أبيض »

وعند المساء خفّ الكبير إلى أخيه وقال له :

ـ « قم لنتفقد الزهرة البيضاء »

قامـا ودلجا دروب المدينة العتيقة مهتديين بضوء القمر . وكم كانت فرحتهما عظيمة عندما رأيا صخور المدينة كلها وهي تتفلق وتنبت زهراً أبيض !

قال الصبي الكبير لأخيه دهشاً :

ـ « أترى ما أجمل مدينتنا ! »

فقال الصغير :

ـ « أكاد لا أصدق أن الحجارة تنبت زهراً ! »

قال الكبير :

ـ « لم لا . . ألا تفعل الحجارة في بلادنا الأعاجيب ؟ »

وهبت نسمة رخاء هزتهما بعذوبة فتضوع منهما عبق الزهر .

الرياض ١٩٨٨

# خبيـــــزة

لقد تغير الأستاذ ( عايش العنبتاوي ) كثيراً عن آخر مرة رأيتـه فيهـا بعد حرب حزيران ٦٧ . كنت أتأمل وجهه المتعب وقـد عبثت في غضـونـه تباريح الوحدة فجعلت منه أديباً هملاً اعتصره الضمـور . عجبت كيف قضى هذه السنـين الـطويلة كلها عزباً دون زوجة تملأ عليه وحدته . نقلت عيني في أرجاء بيتــه الصغـير الـذي عاثت به يدُ الإهمـال وحنت جوانبـه إلى الأنفاس الدافئة . وجدت نفسي أعاتبه بدعابة .

ـ « إلى متى يا أستاذ ستبقى وحيداً دون زوجة تملأ عليك البيت وتأكل معها لقمة شهية ؟ »

فقال بيأس ظاهر :

ـ « أية امرأة ستتزوج من عجوز يبس عوده ؟ سأقضي مع

كتبي ما تبقى لي من سنوات العمر »

ـ « صحيح أن الكتـــاب خير جليس ، ولكن يا أستـاذ أنت بحاجة ماسة إلى زوجة »

أخذ نفساً عميقاً وقال بصوت ينم على احساس بالنهاية :

ـ « لقـد فات الأوان . أنا الآن أعيش مع الذكريات . الذكريات التي لا يدانيها شيء . بعد النزوح كنت أمني نفسي بالعـودة إلى فلسـطين فأرجأت الزواج إلى حين أعود . وعندما وضحت الحقيقة المرة مع مضي السنين أخذت على نفسي عهداً ألّا أتزوج ما دمت نازحاً . وكما ترى أصبحت شيخاً هماً لم يجنِ إلا الندم » .

صمت برهة بدا خلالها وكأنه يداري ذكرى أثيرة .

ـ « منـذ عام ٤٨ لم أذق طعـامـاً مثـل ذاك الذي كانت تطهـوه أمي . لن أنسى ما حييت ذلـك الصبـاح الجميل وأنـا ألعب في باحة الدار حين طلبت مني أمي أن أقطف لها أوراق الخبيزة من البرية . هرعت إلى حواف الطرق الزراعية وتجمعات المياه حيث تنبت الخبيزة . قطفت أينعها حتى ملأت ذيل ثوبي وعدت إلى البيت » .

نظر إلي فرأيته بعيداً . . هناك في مواطن الطفولة والأم ينعم بثراء الذكريات ثم أودعني نظرة بدت لي وكأنه يستنجدني بها أن أعيد إليه الذي لا يعود .

لقد أثار في أعطافي شفقة لم أرضها لأستاذي عندما قال :

- « ومن يومها - منذ خمسين سنة - لم أذق الخبيزة »

قلت لزوجتي :

- « ما أروع أن نحيي الذكريات العزيزة ونطلقها من أسر الماضي »

وفي صباح اليوم التالي قصدت وزوجتي ( وادي لبن ) غرب مدينة الرياض . هناك تتجمع المياه اثر الأمطار التي تهطل في مستهل الربيع فتشكل تجمعات مائية تنبت على حوافها الأعشاب والنعناع البري والخبيزة . جعلنا نقطف أوراق الخبيزة ، ننتقي أينعها وأصغرها حجماً . كنت أرى على أديم كل ورقة أقطفها عيني أستاذي الملتمعتين وقد تهدج صوته وهو يقول : « ومن يومها - منذ خمسين سنة - لم أذق الخبيزة » .

عندما شرعت زوجتي بغسل أوراق الخبيزة وطهوها كنت قربها لا أبرحها وكأن من تمام المفاجأة أن أشهد طهوها لحظة بلحظة . ثم سكبتها في طبق ولفته بورق ( السولوفان ) ،

وزودتني بالخبز والليمون . لم أتصل بالأستاذ بل قصدت أن أفاجئه .

قرعت باب مكتبه في شارع ( التميري ) ودخلت عليه .

ـ « سنتناول طعام الغداء معاً اليوم »

كان الأستـاذ يستمع من مذياعه ( الترانزستور ) الصغير إلى أغنية قديمـة عنـدمـا طالعت في وجهـه سروراً صادقـاً لقدومي . وضعت الطبق على ( طربيزة ) زجاجية تتوسط غرفته وعليها إناء زهور اصطناعية . وعندما نزعت ورق ( السولوفان ) من على الطبق فاحت رائحة الخبيزة المزينة بالبصل المقلي وحبات الرمان والجوز . كنت أرقب وجهه كي لا يفوتني وقع المفاجأة . غاب الأستـاذ في لحظات صمـت عبرت عن كل ما يجول في أعماقه من أحاسيس .

كان كل ما أتمنـاه أن أعيد لأستـاذي ذكرى الخبيزة التي أكلهـا من يد أمـه منـذ خمسين سنة ، وأن أقضي معه وقتاً طيباً بعيداً عن تبـاريح الـوحـدة ، وأن يمتلك الأستاذ ـ وأنا معه ـ شعـوراً بأن الدنيا ما تزال بخير . رفع الأستاذ نظره إلي وربت على خدي براحته الهزيلة وقال .

ـ « أنت حساس إلى أبعد الحدود . . أنا غني بك »

فأردفت على الفور :

ـ « بل أنت ثراؤنا وبركتنا يا أستاذ . ( وقدمت له الخبز ) سمّ الله »

تركته يأكل بصمت وكنت مسروراً لأنني استطعت أن أخلق لحظة سعادة بأزهد الأثمان . . من خير الأرض الطيبة . . أن أعيده إلى بلدته ( عنبتا ) . . إلى دروبها الخضراء . . إلى حضور أمه المفعم بالبركة والحنان .

انتهينا من الطعام ، وكانت السعادة واضحة على أديم وجهه المتغضن .

ـ « شكراً على دعوتك التي لن أنساها »

وجدت نفسي أسأله طمعاً مني بأن أتبين مبلغ وصولي إلى ذاك اليوم الذي لن ينساه الأستاذ .

ـ « قل لي يا أستاذ هل خبيزتي شهية مثل خبيزة أمك ؟ »

ابتسم في هدوء فيما كان يمسح فمه بالمنديل وقد تبينت من عينيه أنه غير راغب في إجابتي ، بيد أنه قال دون تردد وبما عهدته به من صراحة :

ـ « كان طبقك شهياً إلى أبعد الحدود ، ولكن اسمح لي أن أقول لك إنني لن أذوق أشهى من طبق أمي » .

كان الأستـاذ محقاً ، وكان علي أن أتذكر كلماته التي كان يرددها علينا دائماً ونحن تلاميذ منذ أكثر من ثلاثين عاماً .

« صحيح أن الـزهـور جميلة ، ولكن ما فائدتها إنْ كان أريجها هناك . . في أعماق الماضي السليب » .

الرياض ٨/٦/١٩٨٩

# عش الغراب

تلعب سلمى الصغيرة مع أخيها أحمد في منتزه أخضر فسيح .

يجلس أبوهما على مقعد غير بعيد منهما . . يقرأ الأب في جريدة . . الشمس الدافئة تنشر نورها المنعش ، والنهار الجميل يتضوع بالفرح . . مفعم بعبق الحياة ، بالطمأنينة ، كل شيء من حولهما ينبض بالحياة كوجه الشمس . . كحمرة المغيب على سفوح الجبال الخضراء .

تدنو سلمى من وردة برية صفراء . . الوردة فرحة . . تهتز هوناً بين زهور شقائق النعمان مع النسيم الخفيف . . سلمى لم تقطف الوردة . . أدركت بحدسها الطفولي أن الوردة جميلة بين الزهور الحمر وأنها يجب أن تبقى .

يناديها أخوها :

ـ « سلمى . . تعالي نركض . . »

يركضان . . يتصايحان . . يتنفسان فرحاً وردياً .

ـ « أمسكني إن إستطعت » .

ـ « سأمسكك . . »

يرفع الأب بصره عن الجريدة ، يتفقد ولديه بنظرة حانية .

ـ « لا تبتعدا . . »

يصرخان بصوت واحد :

ـ « حاضر يا بابا . . »

يشمل الأب المكان بنظرة بهيجة . تنبض روعة الحياة في كل ما حوله : الشمس . . الدفء . . الزهور . . زرقة السماء . . وأشجار السرو الممتدة التي تحجب الأفق البعيد .

يقلب الأب صفحة من جريدته . . يقرأ :

( إن ألف مليون شخص يموتون فوراً في حالة وقوع حرب نووية وذلك بفعل السحابة النووية الهائلة التي تتصاعد على شكل عش الغراب . . وإن ألف مليون شخص آخرين سيموتون بعد ذلك موتاً بطيئاً بعد مقاساة حروق وآلام بالغة ) .

تتراقص أسراب السنونو في السماء ثم تدنو مغردة . . الناس يتجولون في المنتزه بأمان . . يغفو عجوز على مقعد تطاولت من حوله الحشائش الخضراء . . ينتشي الفرح في عيني صبية لأن الشاب الذي يسير معها وعدها بمستقبل رغيد تصبح فيه الأحلام أطفالاً وبيتاً دافئاً ولقمة هنيئة . . تتشابك زقزقات العصافير المتوارية في بطن أشجار السرو .

ينظر أحمد إلى الهوام كيف تسعى . . تنادي سلمى أباها :

- « بابا . . أريد أن أبقى هنا . . الأزهار جميلة وأنا أحب العصافير والشمس » .

( وسوف تؤدي الانفجارات إلى ارتفاع سحابة من السناج تقدر بمائتي مليون طن إلى ارتفاع ثلاثة أميال فوق سطح الأرض ، وهذه سوف تمتص ٩٥ ٪ من أشعة الشمس فتغرق الأرض بالتالي في ظلام دامس وتتوقف عملية التمثيل الضوئي اللازمة لنمو النبات والمحاصيل ) .

الطفلان فرحان مثل الوردة البرية الصفراء . . يلعبان باطمئنان . . فأبوهما هناك . . يكفي أن يكون بالقرب منهما حتى ينهزم خوف الدنيا كله والليل الذي يخبىء في حلكته

الجنيات . . وها هي الشمس دافئة ، والدنيا الجميلة من حولها تضج بالحياة .

تبصر سلمى على الحشائش الخضراء عصفوراً ميتاً .

- « أحمد . . انظر » .

- « يا الله . . عصفور ميت » .

- « مسكين . . ترى من قتله ؟ »

- « الصياد » .

تقول سلمى بنبرة مشحونة بكثير من الحزن :

- « كيف يجرؤون على قتل عصفور ؟! »

يطرح الأب الجريدة جانباً . . يثبت بصره على ولديه . . يمور الخوف في داخله . . لا يريد أن يصدق أن هذا الرعب ممكن ! يحس أن كل شيء يضيق عليه الخناق حتى النسيم العليل . . يهزه أن هذا العالم الجميل لا يريدونه أن يبقى . . ينادي ولديه :

- « تعاليا . . سنرحل . . »

- « نريد أن نبقى . . »

- « المنتزه جميل يا أبي » .

- « لا أريد أن أترك العصافير . . »

ـ « الشمس دافئة يا أبي . . »

ولكن الأب يمسك بيديهما الصغيرتين ليجتاز معهما العشب الأخضر .

وعندما أذنت الشمس بالمغيب كان الطفلان ينعمان بلذة الدفء والأمان في فراشيهما . . وكان كل شيء خالداً كحمرة الغروب على سفوح الجبال الخضراء .

الرياض ١/٢/٨٥

# قــــوس قـــزح

## منيـــــة

أوتسأليني إن كنتُ أذكر اليوم الغائر في أعماق الطفولة ؟

وكيف أنسى خوفاً مزّق رواق البراءة في عيوننا . كنتِ تركضين مذعورة والكلب يتبعك وقد أجفل نباحه اخضرار عينيك اللتين طالما سكنتُ براءتهما . كنتُ واقفاً بعيداً عنك أبكي ، وكان من المستحيل أن أمتلك الشجاعة وأخلصك منه وأنا غض صغير مثلك . لم أملك حينها إلاّ أن أنادي مستغيثاً :

ـ « أدركوا منية . . »

بعدها لا أذكر إلاّ أنني حلمت .

حلمتُ أن فارساً يمتطي صهوة جواد أبيض لبى النداء . دنا منك وتلقاك بيده اليمنى فيما كانت الأخرى قابضة على رسن

الجواد ، وعاد بك إلى مروجه الخضراء . هناك سكن هو الآخر براءة عينيك الخضراوين .

ومن يومها وأنا أحلم بأن أصبح فارساً ذا جواد أبيض .

## سحر

لقد أفزعتني يومها أيتها الشقية الصغيرة . قلتِ لي :

ـ « استلقِ على الأرض دون أدنى حركـة ، وأبقِ عينيكَ عالقتين بالنجوم وإلّا التهمك هزيم الرعد ومزقتك البوارق » .

تركتني أعـد النجوْم دون حراك . نسيتني وانصرفت إلى لعبـك مع صديقـاتـك واسـترحتِ من مضـايقتي لهن . ليلتها هطلت الأمطار وتملكني الرعب واستبد بي . قلتُ في سري إن الرعود آتية لا محالة . ومضت ساعات وأنا مستلق تحت المطر . أعجب كيف أطعتـك وصـدقتك أيتها الشقية الصغيرة ! لقد مكثت في قبضة الليل وقتاً طويلاً أتوقع في كل برهة أن تدهمني بوارق الرعد .

وعندما اشتدت وطأة خوفي قلتُ لليل باكياً :

ـ « هأنذا أيها الليل بين يديك أستحلفك ألا تؤذني » .

ثمّ غفوت . وما أروع تلك الكلمات الناعمات التي كانت

تهمس في أذني من أعماق حلمي :

- « قم يا حبيبي . . أنا أخطأت معك ولن أدعك ثانية تلتحف الليل وتبلك الأمطار » .

- « أنا أحبك يا سحر فلِمَ تركتني وحيداً في الظلمة تحت المطر ؟ » .

- « سامحني يا حبيبي » .

« أفقت على قبـلات هينـات تُطبع على وجنتي البليلتين فأبصرت وجهــك هالـة من نور في حلكـة الليل ، ورأيت فيه حوارنا الذي دار بيننا في هدأة الحلم » .

وما أسرع ما نسيت إساءتك وتذكرت أنني أحبك

## صبـــاح

ثمة ، تألق نورك وانبسط على امتداد الأفق البعيد حيث تسـير قافلة الهجن ، وبعـد قليل ستغيبُ مع القـافلة أهزوجة دائمـة الترحال ، بيد أنكَ ستبقى دائماً في قلوبنا ، نوراً ينبسط على امتداد الأفق وينسكب كل فجر على الكثبان الحمراء .

## ماجـــد

أتذكر يا ماجد . .

ذاك الـدرب الـترابي الـذي يفضي إلى بسـاتـين « الديوانية » ؟ كنا ثلة من الأولاد نجوب الأراضي المزروعة بحثاً عن مكان مثمر . كانت السلة بيدك أنت ، وكنا عازمين على أن نملأها بالثمار .

بلغنـا مكـانـاً كثيف الأشجـار . أذهلتنـا قطوفه الدانية وامتلأت أفئدتنا حبوراً وحرنا من أين نبدأ . ولكن ما أسرع ما تبعثـرنـا في أرجـاء البستـان كسرب من الحمام يسعى وراء نثار الحب . كنت أراك وأنتَ تملأ السلة بما يصادفك من ثمار .

وبغتـة ، عنـدمـا ظهـر من أقصى البستـان مارد يسعى متوعداً ، صرختُ بكل ما أوتيتُ من قوة :

- « اهربوا . . جاء البستاني . . »

هربنا كلنا إلاّ أنتَ !

كم كنتَ رائعاً . . أية شجاعة تلك التي كانت في حنايا قلبك ؟!

إني أراكَ الآن وأنتَ واقف بجسمـك الصغير أمام المارد والسلة المترعة بالثمار بيدك . كنتَ تحاول أن تقول له أي شيء

وقد أبيتَ أن تهرب .

أتذكر يا ماجد ؟

عجبنا يومها كيف أن البستاني أخلى سبيلك دون أن يضربك ! لست أدري كيف لجمت سورته ! لقد اكتفى بأن أخذ منك السلة واستدرت أنتَ بكل شجاعة وغادرت البستان دون وجل .

## رســــلان

وتسألني :

ـ « أما تزال تراني صغيراً ؟ »

أجيبك :

ـ « أراك صغيراً عندما أبصرك بعين قلبي ، لأن قلبي دائماً هناك حيث يهزني فرح كياني فيه كل ما في الطفولة من نشوة وحبور » .

أناديك جزعاً وأنتَ تقذف بنفسك في النهر :

ـ « رسلان احذر الدوار . . »

وعندما رأيتك تتحدى لجة المياه بشجاعة هدأ جزعي وجعلت أنظر إليك وأنت تقاوم بمهارة مسار النهر الذي كان يدفع بك إلى حافته الكثيفة الأعشاب .

اقفز إلى النهر واسبح تجاهك . تقول لي :

ـ « لا تخف عليّ فأنا أسبح جيداً »

بيد أنني لم أتركك . أصبحت أسبح بالقرب منك ، أحاول جاهداً أن أحميك من كل خوف كنت أتصور بشاعته وأنت في وسط المياه . كنتُ وحدي الخائف ، أما أنتَ فما أبرعك !

والآن ، بعد هذه السنين الطويلة ، أذكر كم كنتَ رائعاً وأنت تسبح بليونة سمكة ، ولم يكن في وجهك أثر للخوف ، بل كان ينبض بلذة الاقتحام . فأقول لك :

ـ « أراك صغيراً عندما أبصرك بعين قلبي . . لأن قلبي دائماً هناك حيث يهزني فرح كياني فيه كل ما في الطفولة من نشوة وحبور » .

## نــــدى

أكره أن أصدق أنكِ كنتِ ، ببهائك الطفولي ، موضوع فضول هؤلاء الناس .

انــدفعت كالملتــاث صوب الــزحمة التي كانت تتـورم بجنـون . غصت في لحمـة الأجسـاد إلى أن بلغت النـواة التي

انصبت عليها الأبصار .

ثمـة ، أبصرتـكِ والدماء ، وثوب أبيض قد تمزق ، فيما كان لغط أشل يتردد : « لقد ماتت » . بيد أنكِ كنتِ تنبضين بقوة . وعندما رأيتُ خضرة عينيك الربيعيتين جامدتين صرخت في وجوههم :

ـ « افعلوا شيئاً » . .

آه . . لقد تذكرت هؤلاء الذين كانوا يتكدسون بفضول مذعــور حول جســدك المسجى على الإسفلت الحار . كانـوا عاجزين عن فعل أي شيء . وعندما غرزت ساعدي الضعيفين تحت جسدكِ محاولاً أن أحملك أبعدوني عنك :

ـ « ابعـد أيهـا الصغـير . . لننتظر قدوم الشرطة لتحور حول جسدها ! »

أتدرين يا ندى أنني ، خلافاً لما كنتُ أتوقع ، استطعت أن أحملك . إلا أنهم منعوني من أن أنقذك !

والآن ما أروع أن تغمـر ابتســامتك ذكرى مقيتة وتغيبها عن الذاكرة ولو إلى حين .

*

# ســــوســــن

أبصرتــك زهــرة ندية وحيدة في خريف ريحـه آخـذة بالاشتـداد ، فخفت عليكِ بقـدر ما عجبتُ ، إذ كيف تنبت زهـرة في خريف غاضب ؟! وكيف لها أن تصمـد وقـد نضبت الحقول وحسبنا أن الأيام لن تحمل زهرة رقيقة .

دنوت من بهائك الربيعي أسألك بكثير من الحب والقلق عما أنبتـك أيتهـا الـزهـرة الجميلة في هذا الخريف الغاضب ؟ أجبتني بعينيك المترعتين برغبة البقاء :

ـ « غداً عندما يأتي الشتاء وتبصر قوس قزح تعرف لماذا أتيت »

لم آبـه لكلامك بيد أن ذلك لم يعق قدوم الشتاء . وفيما كنتُ أجوزكِ سألتِني :

ـ « هل نسيتني يا أخي ؟ »

نظرت إليكِ بفيض من حنان كاد يتفلت من أعطافي :

ـ « لا . . لم أنسكِ أيتها الزهرة الجميلة »

ثم أومأت برأسكِ قائلة :

ـ « ها قد قدم الشتاء فهل لكَ أن تنظر إلى الأفق وترى كم هو بهي قوس قزح » .

وعنـدما التفت إلى الأفق وأبصرت لحمة ألوانه الهارمونية وراء ذلك الغبش الندي ، وجدت كلماتي في فمك وأنتِ تقولين لي :

ـ « ألا ترى أن ألوانه سبعة ؟ إنني ذاك اللون البنفسجي الأخير الملتحم باخوته خوفاً من أن يتفلت » .

الرياض ١٩٨٧

# تـــرى أيـــن الله

## (١)

نظرة تأمل غضة تنامى في سكونها نواة سؤال :

« أين الله ؟ »

لا يذكر الآن ما إذا كان الفصل صيفاً أم شتاءً . كل ما يذكـره أن الوقت كان ليلاً ، وكان الليل يلج في برودة هينة لا زمن لها . خرج من الغـرفة إلى الشرفة ، من بهر الضوء حيث يرى ألعابه والأشياء التي ألفها وعرف أسماءها بوضوح فج ، إلى الظلمة التي تطوي حلكتها عالم الأسرار والتساؤلات المبهمة .

أطلق نظرة في هدأة الليل فيما كان صدى الأذان يتناهى إلى مسامعه من بعد بكثير من النشوة والرهبة . كان متأهباً لأن يكتشف خبرة جديدة في الـظلام ، وكـان الهـدوء مهيأ للحـظة

الآتية من غياهب الأبدية . . من ذلك البعيد الذي يحمل نشوة الروح بالفتها وغرابتها معاً .

تساءل فيما الأذان البعيد يولج بَرَدَ النشوة في أعطافه :

« أتـراه آتياً من الـلامكـان ؟ من نهاية هذه العتمة التي تطوي في قرارهـا الأحلام كلها ؟ أم من خلف النجوم التي لا يخبو بريقها ؟ »

كان قد بدأ يحس بقلبـه الصغـير معنى كبيراً نسجه دفق الأذان الحنـون المنسـاب في جداول الليل الهـادئـة . وعنـدمـا لامست صفحة وجهه نسمة هنية فاض ذلك المعنى السرمدي في أعـماقـه . عرفه على تعذره . بل كاد أن يراه لو لم يتذكر في تلك اللحظة ألعابه المبهجة القابعة في بهر الضوء داخل الغرفة .

(٢)

النهـار . . وتلك الشمس الـدافئـة وذاك الـدرب الأثـير الـــذي يفضي إلى قلب الأشياء السعيدة ، عبرهم بدأت رحلة البـداية . . رحلة الفضـول والسؤال . في الحـواري القـديمـة نبضت الحياة في عروقـه وجرت مع أنفاسه ، وها هو ذا يلعب

مع لِداته في صحن الجامع الذي يتوسط الحي ، وعندما يجتاحه التعب يجلس متربعاً على الحصير ويطلق عنان عينيه تسبحان مع الحمائم التي تطوف في فضاء الجامع وتمرح آمنة في صحنه .

لم تكن تلك الأيام خلواً من الأسئلة الكبيرة . كانت تفرض نفسها على عقله الغض فينبهر حائراً أمام هذا العجز الذي ينتابه بيد أنه كان يغيب عن لذة تتوسد شغاف روحه ويتنامى في سكون أعماقه نواة سؤال :

« ترى أين الله ؟ »

(٣)

هي الشمس ذاتها التي تغمر أديم وجهه المستسلم لحجر جدته ، لم يعد يشعر الآن بأناملها الوانية وهي تمسد شعره ، وغابت بقية الحكاية . . وحتى الإجابة على سؤاله : « أين الله يا جدتي ؟ » قد غابت بدورها لأنه كان يسامر بعينيه النعستين الأطيار في لهوها بين الأشجار اليانعة .

بيد أن جدته كانت تجيبه دون أن تدري أن حفيدها الصغير قد غفا في حجرها في نوم هانىء : « الله يا حبيبي . . . »

(٤)

مسحت أمه دموعه وقالت له :

- « لا تحزن يا ولدي فقطتك الآن في الجنة تمرح سعيدة »

الجنة !!

يا لذلك المكان الأثير اللا متناهي !

يرامق صفحة السماء المتلألئة بمقلتيه الدامعتين . فثمة عالياً توجد الجنة . وهذه الغيوم التي تسير ببطء هيهات لها أن تكشف عن الجنة لأنها أكثر علواً مما نظن . . ياه ، كم هي عالية أكثر مما نظن !

وتساءل : « متى سأنعم بالجنة وأرى الله وقطتي والعصافير ؟ هناك يمرح الصغار مع الملائكة ذات الأجنحة البيضاء ، ويداعبهم الله بكثير من الحَدَبِ والطفولة . وسأرى الله . . سأعرفه ، وسأقف أمامه أتملى النظر في بهائه وأقول له بكل ما في قلبي من صدق :

« أحبك يا الله . . ولكن لماذا أمتَّ قطتي ؟ »

(٥)

يندفع جسمه الضئيل بين القبور بفضول وإصرار .

الهـدف هو تلك الخيمـة المـطوقة بحشد آدمي . هناك سيروي فضـولـه فيما عَرَفَ أنـه المـوت . المـوت الـذي لم يعـد مسرحه حكايات جدته فقط ، بل ذلك المعنى الطارىء المجهول الذي دَهَمَ كيانــه وأصبـح جزءاً من حياة حيه الـذي كان يلقى فيه الأشياء الخالدة البهيجة .

فمن أحد بيوت الحي خرج النعش ، وأهل الحي رفعوه على أكتـافهم ، وحتى المسجـد الـذي كان يلقى فيه اليمامات الوديعة بدا له على معرفة وثيقة بالموت فقد استقبل النعش وصلى النـاس خلفـه . حتى طرقـات الحي ، التي نبضت في عروقـه وكـانت في خيالـه مسرح اللعب والـرؤى الجميلة ، بدت على حقيقتها معبراً للموتى . كان يتبع النعش المحمّل على الأكتاف إلى ذلك المكان الذي عرف أن اسمه المقبرة .

هناك ، وقف قرب الحفرة ورمق الوجوه الباكية الحزينة . وعندما تردد اسم الله كثيراً أدرك ، للمرة الأولى ، أن لله علاقة وثيقة فيما يحصل فنبض في أغوار نفسه الطرية سؤال :

« ترى أين الله ؟ »

الرياض ١٩٨٨

# شجـــرة الزيتـــون

في بستـانـنـا شجـرة زيتـون ضاربـة جذورهـا في أعـماق الأرض . كان جدي يقــول إن عمـرهـا مئـات السنـين وأنها أطعمتــه من ثمـرهـا وزيتهـا كما أطعمت أجـداده ، وأسبغت عليهم من فضلهــا . كان جدي يتردد عليهــا كثــيراً ، يسره جمالها ، ويتفيأ ظلالها . عاش حياته يدافع عنها ويدعو الناس إلى ما في ثمــرهــا وزيتهــا من فائـدة لا ترجى في غيرهـا من الأشجـار . وقبـل أن يمـوت جدي أوصى بها أولاده حفر على جذعهـا العـريق كلمات لا تزال ظاهـرة حتى هذه الساعة على تقادم السنين .

( بسـم الله الـرحمن الرحيم . أوصيكم يا أولادي بتقوى الله والحفـاظ على شجـرة الـزيتـون لتكون لكم ولأولادكم من بعدكم خير مورد وزاد . حافظوا عليها يحفظكم الله . أما إذا لم يعـد في ذريتي من يصـون هذه الشجـرة المبـاركـة فانني أوصي بريعها وقفاً لمسجد البلد ) .

وجاء أبي من بعده ليتسلم الأمانة . كان ـ رحمه الله ـ مثل

جدي شديد الحرص على شجرة الزيتون ، وكان كلما جلسنا إليه يحدثنا عنها وعن خيراتها وفوائدها التي لا تحصى . إلا أن أبي كان لا يجد غضاضة في أن نأكل من غير ثمرها ، وأن نقتني زيوتاً مستوردة إن دعت الحاجة ذلك ، وكنت أنا من دون اخوتي جميعاً الذي وجدت في أفكار أبي هوى في نفسي . أما اخوتي فكان بعضهم شديد التعصب لها حريصاً ألا تشرب أبداننا من غير زيتها ، وكان بعض آخر يرى أن قطع الشجرة من دابرها وبناء مصنع في المكان الذي تشغله هي واخواتها من أشجار الزيتون خير لنا ، ومن واجبنا أن نريحها من مهمة لم تعد قادرة على مواصلتها .

وفي ساعة من ساعات الفلك الدائرة مات أبي . مات الرجل الذي كان قادراً قولاً وعملاً على حماية شجرة الزيتون من دون أن يحرم نفسه ويحرمنا من التمتع بأطايب غيرها من الثمار في حدود كان يدركها بأصالته واعتزازه بهذه الشجرة المباركة . وكيف لي أن أنسى وصيته التي حفرها في ذاكرتي .

( احرصوا يا أولادي على هذه الشجرة العظيمة واجعلوها أبداً الزاد الأول ، ولا يفوتنكم ـ وهنا نقر أبي بسبابته على صدغه ـ أن فكركم لن يستقيم إنْ لم تشرب أبدانكم خير زيوت

الدنيا . انتقوا بحذر واحذروا أن تنسوا شجرة الزيتون ) .

مات أبي ليخلف وراءه أبناء متصارعين ، اشتد بينهم الجدل وانفرجت مسافة الخلف . بعضهم يريد أن يضرب حول الشجرة سياجاً من أسلاك شائكة خوفاً من أن يصيبها مكروه ، والآخرون أعدوا فؤوسهم المجلوة ليشبعوا جذعها ضرباً حتى تهوي إلى الأرض . أما أنا فقد وقفت بينهم أذكرهم بوصية أبيهم وأثنيهم عن إيذاء هذه الشجرة المعطاء ، بيد أن كلماتي لم تصل قرارة أنفسهم ، ولما وجدتهم مع الأيام قد ازدادوا عتواً عزمت بحزم على حماية الشجرة وصرخت في وجوههم :

ـ « لن تنالوا من شجرتنا المباركة التي ما غرست إلا لتبقى » .

كنت مدركاً ، على ما أوتيت من جرأة وحماسة وأنا أصدهم عن عزمهم ، أنني دونهم قوة وأنهم قادرون على إيذائي .

قال لي أكبرنا سناً :

ـ « ان كنت حريصاً حقاً على ما جاء في وصية جدك فعليك أن تكون عضداً لنا وتساعدنا على تسوير هذه الشجرة العريقة اجلالاً لها ومنعاً لإيذائها » .

فرد آخر تملؤه الخفة :

ـ « عذراً يا أخي الكبير . . لن تسور الشجرة ولن نأكل بعد اليوم من ثمرها وزيتها ، لأن العقل يقول إن الشجرة يجب أن تبتر والمصنع يجب أن يشاد في مكانها ، فلقد شبعنا من ثمرها . ثم ان زيتها لم يعد يلائم معدة هذا الزمن ، وانني أرى أن الزيوت المستوردة أكثر جودة وصفاء » .

وقال آخر :

ـ « أرى أن تنشئوا مصنعكم في مكان آخر وتبقوا شجرة الزيتون فربما تضطركم الأيام أن تعودوا إلى ثمرها وزيتها » .

وقال آخر :

ـ « فكروا بالبديل قبل أن تقطعوها » .

ـ « السوق فيه ماهب ودب من أصناف الزيوت » .

ـ « الزيوت المستوردة هي الأفضل دوماً » .

ـ « بل العودة إلى وصية جدكم هي الحل الأمثل » .

وتنقضي الأيام والخلاف ما يزال على أشده . أما أنا فلم أجد لنفسي مكانة عند اخوتي جميعاً . فهاهم قد انقسموا إلى فريقين متخاصمين وأصبحت وحدي خصماً للفريقين .

وذات ليلة تعالى صراخهم ودوت في فضاء البستان

طلقات نارية ، فهرعت قلقاً إلى البستان لأرى العراك ناشباً بين اخوتي وقد ملأت شتائمهم أرجاء البلدة . أسرعت إلى الشجرة التي انهالت الفؤوس على جذعها ودنوت من شرخ بليغ أصابها . لمسته بيدي فأدركت بحزن شديد أن أسرتي تقود نفسها إلى الهلاك . قلت في سري إن هذه الشجرة يجب أن تبقى ، وعزمت على ألاَّ أبرحها ، وأصبحت أحرسها ليل نهار .

وذات صبح داعبت النسائم الرقيقة وجهي فيما كان رأسي مستنداً إلى جذع شجرة الزيتون . كانت الأطيار تغرد ، والماء في جداوله القريبة يجري عذباً سلسالاً . التفت إلى الشرخ في جذع الشجرة فإذا بي أرى برعماً أخضر قد تفتق من صلب الشجرة . امتلأت نفسي فرحاً وقرَّت عيني لرؤية هذا البرعم وهو يتمايل جذلاً اثر مداعبة النسمات الهينة لعوده الأخضر .

ومن يومها أصبحت مطمئناً على شجرة الزيتون ، وعندما وقفت أنظر إلى صرحها الشامخ أدركت كم هي عظيمة ومعطاء هذه الشجرة المباركة .

خريف ١٩٨٤

# سبع الدحداح

أسمع عن ( سبع الدحداح ) منذ أن وعيت حارتي وأصبحت أسير بأزقتها بمفردي . ومن يومها وأنا مشغول بمعرفته ، تائق لرؤيته ، أسأل نفسي دوماً : من هو ( سبع الدحداح ) ؟ وأين هو ؟ وكيف لي أن أراه وأشهد خوارقه وقواه ؟

يشك أهل حارة ( تحت المئذنة ) بحي العقيبة ، عقب كل واقعة تشهدها مقبرة الدحداح في جوف الليل ( بقبضاي ) له من صفات البطولة وغرابة الأطوار ما يجعلهم يزعمون أنه ( سبع الدحداح ) . إلا أن هذه الشكوك سرعان ما تتبدد وتنهار أمام قدرة ذلك البطل المغوار ، وتبقى الحيرة تضرم نار الفضول دون أن يقدر أحد على معرفة هذا البطل المجهول . . ترى ما

حكاية ( سبع الدحداح ) ؟

أهو حقيقة أم من نسج الخيال ؟

هاتف بداخلي ما فتىء يؤكد لي أن ( سبع الدحداح ) حقيقة لا يرقى إليها الشك ، وأنه من حينا ، ويسكن بيننا في واحد من هذه البيوت الطينية العتيقة التي تشكل سوراً يفصل بين الحي والمقبرة .

في المدرسة ، وخلال تجمعاتنا في الحارة قرب حنفية السبيل ، نتناقل ـ نحن صبية الحي ـ ما وصل إلينا من أخبار بطولاته ، ونعيد ذكر أمجاده القديمة بثوب جديد دون أن تفتر رغبتنا من تكرارها بل نثير أحياناً متعمدين حدثاً قديماً له لنضرم شوق الفضول في أعماقنا ، فترى العيون تتقفى الأحداث برعب وذهول ، وترهف القلوب المرتابة أسماعها علها تعثر في تضاعيف الكلام على ما يفضي بها إلى معرفة هذا البطل المجهول .

ومن عجب ، أنه كان يلذ لنا ذكر ( سبع الدحداح ) عندما يحل الظلام ويسود الصمت ، وكأننا بذلك نلبي شعوراً بالحاجة إلى الخوف والمجهول . فعند المساء ، تكون الحارة قد

خلت من السابلة والباعة المتجولين ، وركنت إلى الصمت ، وبدت من خلال أضواء المصابيح الباهتة وكأنها بين الحلم والواقع . كان يجمعنا ، نحن الصبية ، همّ واحد . أن نعرف من هو ( سبع الدحداح ) ، وأن نشهد قدرته التي لا يعجزها شيء على وجه البسيطة .

ولعل أكثر ما كان يشوق نفوسنا الغضة ويشغلها هو تساؤلنا الذي لم يبرح أفواهنا :

ترى هل ( سبع الدحداح ) حقيقة أم من نسج الخيال ؟

وتباغتني ذات مساء إجابة جريئة من أحد الصبية . إجابة واثقة غير هيابة ألقى بها الصبي في بحيرة أعماقي الساكنة المطمئنة ، فهاجت مياهها واضطربت ، وانداحت التساؤلات دوائر لا نهائية . قال بلكنة مشحونة بالتمرد :

- « لقد جعلتم من ( سبع الدحداح ) اسطورة . . اسمعوها مني . . ( سبع الدحداح ) لا وجود له ، وكل ما تلوكونه عن خوارقه وقواه هو من صنع خيالكم الضعيف الذي يعجز عن البطولة ويتوق إليها » .

لست أدري أكان الخوف وحده الذي جعلني أنسحب

من جمعهم ، أم شعور اليقين الذي ما برح يؤكد لي أن ( سبع الـدحـداح ) حقيقة لا يرقى إليها الشك ؟ كنت أنسحب من جمعهم مذهولاً وأنا أصرخ في وجه الصبي :

ـ « سيأتي يوم ترى فيه ( سبع الدحداح ) . . »

وكـأنها صرخـة انفجـرت في عالم الغيب لتصنـع صنيعاً أذهـل الجميع . ففي تلك الأثنـاء أفـزع الأسـماع صراخ ولـد يركض في الأزقة المعتمة كالملتاث :

ـ « السبع في التربة . . السبع في التربة »

تبعثر جمعنا وهربت بقايا الخلق إلى بيوتها ولم يبق إلا قليل دفعهم الفضـول إلى المقـبرة . فهناك ، بين القبور وهدأة الأبد سيبلون صدى فضولهم برؤية السبع المغوار . كنت بينهم صبياً يسـعى وجـل الفؤاد وفي عينيه شوق لا يخبـو لرؤية ( سبـع الـدحـداح ) . سعيت بين الأرجـل والأتـربـة المثـارة ، أزحم الأقدام دون خوف . فهناك ، في المقبرة المترامية الأطراف ، التي تطوي في تضـاعـيف صمتهـا أسرار الأمـوات والأحياء على السـواء ، سأرى ( سبـع الـدحـداج ) سأشهـد احدى مواقعه الخارقة . . سأغرز ناظري في أعماق الظلمة باحثاً عما رسمته في مخيلتي عن ( سبـع الـدحـداح ) . . عن عينيه الصقـريتـين ،

وشاربيه اللذين يغطيان نصف وجهه ، وعن جسده العملاق وهو يتنقل على أديم الأرض بانسياب وخفة .

عبرت مع العابرين الزقاق الضيق الذي يفصل بين حي ( العقيبة ) ومقبرة ( الدحداح ) . هناك ، في الساحة المتربة المحاطة بالقبور . احتميت خلف شجرة كينا ضخمة . كان الجمع غفيراً ، أشباح تكر وتفر . امتزجت بالغبار والخوف . كنت أبحث بعيني عن ضالتي . . عن ( سبع الدحداح ) . أنقب عنه بين الأشباح .

بيد أنني لم ألقه ، لأنني في لحظة غير معلومة غبت عن وعيي . ربما أصاب رأسي حجر فشجني . أو علها ضربة عصا طالتني من وسط الظلام . المهم أنني لم أصل إلى بغيتي . ولم يترك ذلك اليوم إلا أثر لشج على جبهتي .

وتمضي الأيام وتتبعها السنون . يمضي منها ثلاثون سنة أو أكثر بقليل . وذات صباح ، فيما أنا جالس على كرسي الحلاقة في الصالون الذي يشرف على بوابة المقبرة ، يرفع الحلاق يده محيياً بصوت ممتلىء :

ـ « أهلاً سبع . . تفضل »

ثم يضحـــك الحـــلاق وبعض الـزبـائن الجـالسـين في الصالون . يعلق أحدهم :

- « لقد ترهل الرجل وشاب »

وقال آخر :

- « كانت له أيام »

وقال الحلاق :

- « سقى الله ذلك الزمان . . كنا نخافه حقاً »

تثـير تعليقـاتهم باطن الذكريات في أعماقي . . تثير زمناً كثيراً ما أعود إليه بشوق كبير . وعلى حين غرة ، تومض ذكرى في رأسي لتعيدني إلى أيام بعينها ، إلى الحارة بعيد الغروب ، إلى خلواتنا قرب حنفية السبيل ، إلى ذلك اللفيف من الصبية وهم يتناقلون أخباره . أرى نفسي بينهم ساعياً إلى معرفة ذاك البطل المجهول .

أنـظر إلى وجـه الحلاق من خلال المرآة . وأجدني - وقد امتلأت غبطة - ألفظ لقبه :

- « سبع الدحداح !! »

يجيبني الحلاق :

- « هو بعينه ( سبع الدحداح ) ألا تذكره يا أستاذ ؟ »

يتأجج الفضول بداخلي . أنزع المريلة البيضاء من حول رقبتي وصدري وأقفز من على كرسي الحلاقة كالملدوغ . يلحقني صوت الحلاق :

ـ « يا أستاذ ؟!! »

وأغوص في الدرب العتيق باحثاً عن ( سبع الدحداح ) . كان الدرب خالياً من السابلة عندما لمحت ظهر رجل يلج دخلة تفضي إلى المقبرة . قلت في سري لا بد من أن يكون هو فالطريق خال من الناس . وعلى الرغم من أنني لم ألمحه إلا لثوان قليلة فقد أذهلني ما رأيت . رأيت رجلاً ذا بسطة في الجسم ، عريض المنكبين ، رزين الخطا ، أشهب الشعر ، في حين كنت أحسب أنني ملاق بعد هذه السنين الطويلة رجلاً هماً أعوجت قناته ، وثقلت خطاه ، واشتعل الشيب في رأسه .

أسرعت صوب الدخلة . ولم أتمالك نفسي فصرخت : « سبع . . » ولجت الدخلة الضيقة فلم أجد أثراً لمخلوق . في تلك الأثناء شعرت بيأس مرير . تمنيت لو أنني لم ألمح منه شيئاً . . لو أنني لم أدخل صالون الحلاق وأسمع عنه بعد هذه السنين الطويلة .

غذذت السير في الحواري العتيقة آملاً أن أجده حتى

انتهيت إلى شجـرة الكينـا الضخمة في ساحة المقبرة . تلمست مكـان الشـج في جبهتي ، وأدبـرت خائبـاً بعدما رميت صمت القبور بنظرة جوفاء .

الآخرون قليلاً ما يتحدثون عن ( سبع الدحداح ) ، أما أنا فما أزال حريصاً على أن أراه .

خريف ١٩٨٤

# الفهـــرس

# منمنمات على جدران دمشق القديمة

لم تكن مفاجأة لي وأنا أنشر غلالة مشاعري على المجموعة القصصية الأولى « منمنمات على جدران دمشق القديمة » للأديب محمد صباح الحواصلي .. فهو جدير بوقفة متأنية في معالم قصصه القصيرة .

عرفته كاتباً متين الأسلوب ، دافيء الكلمة ، قوي المعنى .. يجيد اصطياد الحوادث البارزة في حياته ، فيضفي عليها مسحة فنية تشف عن مآثر الشخصيات التي يختارها من مجتمعه . وحول محورها الماسي تدور فكرته المتمثلة باتجاهاته الفنية .

القصة عنده قطعة أدبية يدرك جيداً ماينبغي من كتابتها ، فيروى حوادثها بصدق ووضوح ، وبراعة في التصوير والتحليل .. فهو فنان يغمس ريشته في ينابيع الرجاء ليرسم خطوط كل حركة يأتيها أبطال قصصه . كما يوضح كل خاطرة تساوره بعفوية الأديب وقدرته على التعبير الفني .

وتغلب على قصصه النزعة الواقعية التي تثير في النفس نفحة الشوق لمتابعة القراءة ، ولمعرفة نهاية الحدث الذي يوطد دعائمه ويقوى أسسه . إنه يكتب ليمارس انسانيته ، وليحقق ذاته من خلال اقتناص اللحظة النابضة بالحياة فتعكس حالته النفسية التي غدت مع مرور الزمن ذكرى مضيئة تنشد اللحن القديم قبل أن يتقلص في صقيع الصمت . كما أصبحت أملاً يصدح بالفرح والسعادة أمام وهج فتنة الحياة .

**عبد اللطيف أرناؤوط**